يوسف عمر

صراط التوهج

من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (2583) السنة العاشرة

الخميس (6) ايلول 2012

WWW. almadasupplements.com

6

يوسف عمر بين التقليد والتجديد

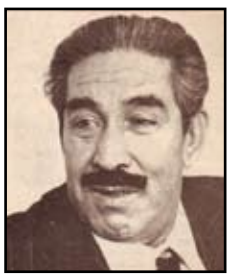

مع حقي الشبلي والقبانجي

يوسف عمر

اربعون عاماً من الغناء

عادل الهاشمي
ناقد موسيقي راحل

ان نذكر تاريخ الميلاد مسالة شائكة! ان المرء ربما لا ينسى ولادته.. ولكنه يتعرض للنسيان مع تراكم الايام. تلك التي يعتقد فيها ان تاريخ ميلاده الشخصي لا يستحق الاشارة اليه او حفظه! الا ان الموقف يتغير عندما يحتل موقعاً في المجتمع – وعلى وجه الخصوص الموقع الفني – تحيله الحاجة الملحة الى ضرورة العثور على التاريخ المحدد للميلاد.

هذا بالضبط ما حدث ليوسف عمر، في غرفة السيد رئيس التحرير كنا ثلاثة السيد رئيس التحرير والفنان يوسف عمر وكاتب هذه السطور، كان وجه يوسف عمر متعبا وهو يريد ان يسترجع تاريخ ولادته الذي سمعه ممن يكبرونه عمراً. فقال وهو يحاول التقاط ذلك التاريخ الذي غشيته طبقة من النسيان ان شقيقتي الكبرى قالت ان ولادتي كانت في الصيف من عام ١٩١٨ وبالتحديد في موسم تدفق الطماطة! وبقي يدور حول هذه الواقعة.. فلم نسعفه الذاكرة برغم محدد لولادته!

فاقترح السيد رئيس التحرير ان تكون ولادة الفنان يوسف عمر هي يوم الخامس عشر من حزيران والذي يصادف ايضا العيد السنوي للصحافة العراقية. وحجة رئيس التحرير في هذا التحديد ان مواسم تدفق الطماطة عادة تكون في منتصف كل عام.. وهذا التدفق يبلغ ذروته في شهر حزيران.. وعليه فقد ثبت يوم الخامس عشر من حزيران تاريخا لميلاد الفنان يوسف عمر.

ان مرور ستين عاما على ولادة يوسف عمر هو بحد ذاته فرصة تستحق التوقف من "الف باء" للتعبير عن تقديرها لرحلة الفن الطويلة التي خاضها يوسف عمر.. فهي تحتفل به لميلادين.. الاول ميلاده في الحياة عام ١٩١٨ والثاني ميلاده في الفن الغنائي عام ١٩٤٨.

ان ستين عاما قد مرت على ميلاده الاول. وان ثلاثين عاما قد مرت على ميلاده الثاني!.

في البداية .. كان الغناء..

في بيت حسن باشا في بغداد ولد فنان المقامات العراقية يوسف عمر عام ١٩١٨ اي نفس السنة التي صعد فيها الى المسرح الفتى محمد عبد الوهاب ليغني لاول مرة وليبدأ حياته الفنية العامرة بالدأب والجدية والاخلاص، ان الشيء المهم الذي حدث بعد ولادة يوسف عمر بسنة واحدة هي وفاة والده، ويمكن قياس الطبائع التي رافقت سيرة هذا الطفل.. انها لاشك متوترة ومتوفرة وقلقة لا تصالح بسهولة الشيء البغيض الذي صادفه عندما امتدت به السنون.. انه يجهل تماما اية ملامح عن العلاقة التي يجب ان تكون بين الاب وابنه.

الفتى والمدرسة

بعد ان ختم يوسف عمر قراءة القرآن الكريم دخل مدرسة – الحيدرية الوافقية – في سنة ١٩٢٧ واستمر في هذه المدرسة يواظب على تحصيله العلمي حتى الصف الخامس الابتدائي حيث نقل الى مدرسة – الرصافة – كان يواجه حبه للغناء في تلك الفترة بسلسلة من التدابير التي يحاول فيها ستر هذا الحب المتنامي.. غير ان ذلك لم يؤد الا الى تعميق حبه وولعه وميله، ان هذا الحب الخفي الحذر المكظوم لم يستمر طويلا خلف حجب تلك التدابير.. بل تجذر على نحو عارم في مدرسة – الرصافة – على يد مدرس مادة الاناشيد فيها ويدعى – عبد الله حلمي العمر – اذ يقوم بين اونة واخرى بسلسلة من الاختيارات عن اصول الاناشيد وانغامها ليكتشف القابليات الخفية التي تعمر بها نفوس هؤلاء التلاميذ، وكان يوسف عمر الاول من بين التلاميذ ممن يملكون مفهوما بسيطاً عن هذه الاناشيد فغالبا ما يجنح الى اظهاره امام زملائه رغبة منه في ممارسة التفوق على نحو مفتون بالزهو! بقيت ملاحظات المدرس ليوسف عمر هي البدايات الاولى لتعلمه فن الغناء، فابتدت هوايته الفنية وولعه الغنائي يشتد ويقوى ويتجذر، في تلك الفترة كان على يوسف عمر ان يحدد مستقبل هوايته بقرار شخصي.. فترك المدرسة اولا ثم اتجه الى عمه المدعو: – محمد علي – الذي توفرت لديه معرفة لاسرار فن المقامات العراقية وعلى وجه الدقة المقامات التي كان يؤديها الفنان الشاب محمد القبانجي الذي بدأ تجمع يبزغ ويسطع.

ويلتقي باستاذه!

درج الفتى يوسف عمر على حفظ المقامات العراقية.. فراح يرتاد مجالس الغناء لهذا الفن العريق... ليس كتسلية انما كهدف تنمو في احضانه معارفه واداؤه انه يريد ان يقترب من اسراره وطرائفه المدهشة التي تجعله في صف العارفين، ان يوسف عمر عرف تماما ما يجب عمله.. ان تعلقه بالمقامات التي يؤديها محمد القبانجي اخذت تسيطر على حياته كاملا فصار يرتاد كل جلسة غناء لهذا (الفن يحييه محمد القبانجي.. ينصت الى نطقه ويستحضر لفظه ويتتبع حركاته الفنية لمقاطع المقامات ويتعلم بشغف اسرار الانقلابات من نغم الى آخر، فبدأ حبه له يقوى ويشتد وتعلقه بفنه يعمق ويمتد.

تحت راية اداء القبانجي نمت قصيدة الحب الكبرى لفن المقامات عند يوسف عمر، هذه القصيدة كانت تطوف في دهاليز الليالي ووضوح النهارات، فقد اكتسبت نبرتها الغنائية المطلقة.. بقيت علاقة الحب من يوسف عمر والمقامات ثم في الحارات والازقة والمقاهي الشعبية والمجالس البغدادية التي كان محمد القبانجي يشدو فيها على نحو رفيع اسرار فنية في المقامات والمنقبات النبوية الشريفة.

وتأسست الاذاعة العراقية

في عام ١٩٣٦ بدأ المغنون يعاملون مع دائرة صغيرة اطلق عليها اسم دار الاذاعة العراقية، التي وفرت على يوسف عمر مشقة الجري وراء استاذه محمد القبانجي فكان يحتضن الراديو بترقب وانتظار ليستمع اليه وهو يغني.. كما كان يستمع الى مغني ذلك العصر منهم رشيد القندرجي ونجم الشيخلي ويوسف حريش وحجي عباس كمبير.. على ان هؤلاء جميعا لم يتركوا طوابعهم الصوتية والالقائية في فن يوسف عمر.. ان يوسف عمر بقي مشدوداً نحو استاذه القبانجي.

بقيت علاقة الحذر والتلمذة ما بين يوسف عمر والمقامات العراقية تاخذ امتداداها حتى عام ١٩٤٨ وعلى وجه التحديد في الشهر السابع عندما هو فن التدريب الصوتي، فالصوت يتحرك داخل المقام ابتداء من درجاته والوانه وتحريره ومباناته وقراراته وجواباته الى تسليمه الخاص، الا ان يوسف عمر يعاني من ثغره تبدو واضحة لدى الاستماع المدققة وهي احتلال انتقالاته في بعض الاحيان اثناء عملية الاداء وسبب ذلك يرجع الى الاجهاد الصوتي الذي يمارسه الفنان يوسف عمر .. لا يمكن انكار صيغة الذبذبات في صوت يوسف عمر.. لكن هذا يدعونا الى ان نطلق على صوته بالبلبل اي المختلط، الا ان الشيء الثابت فعلا ان صوت يوسف عمر هو في مقدمة الاصوات المشتغلة في دائرة المقام العراقي واكثرها سطوعا وخبرة بلا جدال.

وعن تلاميذه اجاب: حسين الاعظمي وسعد حمودي.. ان هذين الفنانين في رأيي يحملان امل التقدم والحفاظ على هذا التراث الخالد.. كما ان من تلامتي قاري المقام حمزة السعداوي.

عن رأيه بقيمة الاصوات الخالية في قراءة المقام؟

يقول يوسف عمر: فخري عمر ما زال في بداية الطريق ويحتاج الى الكثير لكي يثبت في هذا الميدان..

اما صلاح عبد الغفور فقد ارتبطت بدايته الفنية بالمقام العراقي.. الا انه عاد ليرتبط بفن الاغنية وهذا في رأيي دليل على العمق الفني للمقام باعتباره بحرا لا ساحل له؟

ان قيمة الاراء التي يطرحها الفنان يوسف عمر تأتي من خلال الموقع الذي يتصدره حاليا في قراءة المقام وازاء ذلك كان لابد ان تتعرف على ادائه في قيمة الاصوات التي اشتغلت في غناء المقام العراقي منذ زمن طويل. فكانت اجابته خبيرة في الاسماء التي طرحناها عليه وكما يلي:

محمد القبانجي – مدرسة كبيرة للمقام وفنان نادر.. صوته قوي لا مثيل له بين قراء المقام.. يتمتع بكامل

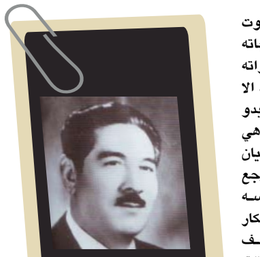

ان يوسف عمر يقدم فنه محكوما بنزعة التقاليد المأخوذة والمتوازنة، ان المهم الالتزام في الاداء عند حدود التراث، ولتغلق الابواب بوجه كل معاصرة، المعاصرة التي تعني الحفاظ على هذا التراث ضمن الصيغ العلمية كالتدوين الموسيقي وادخال الالات الجديدة على تخته التقليدي وتوزيع انغامه توزيعا جديداً،

القرار في غناء المقام اهم من الجواب

قلت ليوسف عمر.. حدثني عن صوتك؟

قال بلهجته الواثقة... المغني كالتاجر، ان التاجر لا يستطيع ان ينهض في عمله ان لم يكن لديه المال الكافي لاستثماره وتوظيفه.. وفي هذا الاتجاه يكون المغني ايضا فهو لا يستطيع ان يؤدي وظيفة الغناء ان لم يكن لديه الصوت الغادر الواضح، علما ان الصوت في المقام العراقي يكمن في القرار او لا اذ ان غناء المقامات يعتمد على قرار عميق وهو اهم من الجواب، احمد زيدان كان يعتمد على جوابه العالي .. اذ تبرز قوته وتتحلى صياغته على نحو عجيب.. الا ان صوته لا يستطيع ان ينزل الى القرار بصورة تامة فقراره ضعيف، ان قارئ المقام يجب ان يكون صوته ممتداً من القرار الى الجواب ومن الجواب الى جواب وفي صوتي قرار جند وجواب من.

ورأينا في صوت يوسف عمر قريب من رأيه هو في صوته، ان صوته ممتد ما بين القرار الى الجواب.. فقراره عميق وجوابه ساطع يستطيع ان يصعد الى جواب الجواب في عدد محدود من المقامات التي يتطلب اداؤها اربعة او خمسة عشر مقاما او درجة صوتية، ان اقتداره في الغناء هو نتيجة لاحقة لان فن المقام العراقي في واقع الامر الاوتار الصوتية ويتصرف وفق ما يريد وحيث ما يشاء.. ان صوته مفصل تماما على غناء المقامات.

حسن خيوكة – مطرب ناجح في اداء لون خاص به.. لديه قرار عميق وعريق وجميل اما جوابه فمحدود. جميل الاعظمي – لون خاص في قراءة المقام لا يشبهه احد. صوته ينتمي الى مدرسة الاداء القديمة ويؤدي بحدود دون تصرف فني يتخصص به.

عبد الرحمن خضر عاصر فن المقام العراقي منذ عام ١٩٤٣ وتاثر بمحمد القبانجي وتحول تأثيره الى تقليد.. الا ان اداءه لا يخلو من جمال وتمكن.

ناظم الغزالي – صوت جميل غني

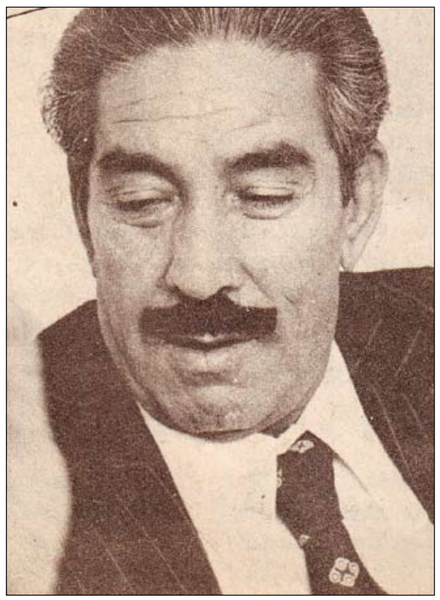

المقامات السهلة التي تناسب صوته.. الا ان نجاحه الحقيق تركز في الاغنية..

عبد الهادي البياتي – صوت يضبط المقام تماما ولونه فيه طابع شخصي محض.

نجم الشيخلي – صوت ممتاز الا انه لا يستطيع ان يداري الانتقالات المتنوعة وبالتالي لايستطيع ان يشكل صوته وفق ضوابطها.

رشيد القندرجي – استاذ .. الا ان صوته مستعار وقد ارتبطت في ادائه حرفية الطابع العراقي للمقام ولهذا فهو نادرا ما يتصرف في ادائه.

حاليا لايوجد صوت نسائي جدير بقراءة المقام:

عن رأيه بالاصوات النسائية التي تطرق ابواب المقام من اونة واخرى؟

يوسف عمر – هناك مغنيات ادين بعض المقامات العراقية وعلى نحو مدهش مثل صديقة الملاية وبهية كشكول، وفي واضح الامر ان زج الاصوات النسائية في فن المقام هو تنوع مطلوب وضروري ولكن للاصوات القادرة فقط وفي الدائرة الحالية للاصوات النسائية يمكن القول انه لا يوجد صوت نسائي جدير بقراءة المقام على النحو المطلوب فعلا.

ان الفنان المغني له دور عظيم في تنمية الحاجة الاجتماعية في الغناء بجانبه التعبيري لا الترفيهي الساذج، ان المهم فعلا هو البحث عن الحدود التي يمكن ان يساهم داخل نطاقها الفنان المغني من اجل دفع قدراته. ومن المفيد القول ان الالتحام بين اعضاء العائلة الغنائية هو تعضيد لفن الغناء على نحو متنوع، ولهذا ينبغي الاحتكام الى راي الفنان بمغني عصره ضرورة لقياس درجة هذا الالتحام وبالتالي معرفة تأثيره في الحاجة الاجتماعية الكلية، يقول يوسف عمر حول قيمة الاصوات التي شغلت الناس ولا تزال.

ام كلثوم – فلتة من فلتات الدهر.. ان الزمن سوف يتوقف طويلا عند صوتها قبل ان تجيء مطربة اخرى قريبة منها، لقد غنيت بعض من اغانيها واهمها قصيدة اكذب نفسي.

محمد عبد الوهاب – صوت نادر مكتمل الجمال ونبوغ لا مثيل له في ميدان التلحين والموسيقى لقد تأثرت به في اغانيه القديمة وغنيت عدداً منها مثل ياجارة الوادي وجفنه علم الغزل.

الشيخ محمد رفعت – قارئ عظيم يمتاز بقوة انفاسه وحلاوة نبراته.. لقد تأثرت كثيرا في طريقة ادائه للقرآن الكريم كما انني اعشق صوت القارئ الفذ عبد الفتاح الشعشاعي.

اسمهان – لون خاص لم يعرفه الغناء العربي منذ زمان طويل.. تأثرت لغنائها طويلا فالذي تمتاز به انها تغني من صميم قلبها.. وانا اعتبرها في المنزلة التالية بعد ام كلثوم.

فريد الاطرش – فنان مقتدر في الصوت والتلحين والعزف واغانيه القديمة لها حلاوة خاصة وانا اعتبره بعد محمد عبد الوهاب في القيمة الفنية.

الحافظ ملا مهدي – اشهر قارئ للقرآن في العراق.. الذي تتلمذ على يد الملا عثمان الموصلي وهو قارئ متمكن.. لازمته في قراءة المناقب النبوية حيث تعلمت الكثير من اسرار فنه الرائع.

الحافظ صلاح الدين – من تلاميذ الملا مهدي.. وفي قراءته يمتد تنغيم جميل ومؤثر.

عبد الحليم حافظ – مغني الشباب .. له من ادائه وتمكنه طريقته التي اختص بها مما خلق لديه جمهوراً عريضا بدين بالولاء لفنه.

تدوين المقام يقيد انطلاقته!

عن تدوين المقام العراقي – يقول الفنان يوسف عمر .. انني اعارض تدوين المقام لان هذا التدوين من شأنه ان يقيد انطلاقة المقام ويحد من روحه الخاصة وجوه الفريد، لقد حفظت المقامات شفاها ويهمني ان يعلم انني احفظ من المقامات العراقية باصولها وفروعها وقد اكملت جميعها اتقانا منذ خمسة عشر عاما.. والذي اريد قوله ان المغنين الذين يأتون من بعدنا لابد وان ينهجوا نهجنا في حفظ المقام كما نهجنا نحن من حفظ المقام ممن سبقونا.

عن مستقبل المقام العراقي !

يوسف عمر – اود ان احيي حكومة الثورة لانها اولت لهذا الفن اهتماماً خاصا، فلقد فتحت معهداً لحفظ المقام وهو معهد الدراسات النغمية.. كما انها اولت عناية متميزة لقضية انتشار هذا الفن التراثي وذلك يفتح مجالات السفر امام قراء المقام الى الدول الاخرى كما اتاحت لهذا الفن ان يحتل مجالا حيويا وان يحتفظ بقيمته المتجددة.

عن المحصلة النهائية التي خرج بها من حياته الفنية؟

يوسف عمر – الهدف الاساسي الذي يدور حوله فني هو الجمهور، ترى ما هي الطريقة التي يمكن بها كسبه؟ ان كسب الجمهور مهمة صعبة جدا ولكن مع ذلك استطعت بالاخلاص له ولفني ان اكسبه ونجحت في هذا المجال نجاحا لا اعتقد ان هناك من ينكره.. والى الان فان الحفلات تطلبني كمغن احيي جميع الوصلات الغنائية لوحدي.. ان هذا التقدير هو الوسام الذي احمله على صدري وهو الشيء الذي خرجت به من حياتي الفنية الممتدة على مساحة زمنية واسعة.

من خلال ما تقدم.. فان السيرة الفنية ليوسف عمر تعطي موضوعيا سيرة فنية لغناء المقامات.. لا سيرة لحياة فنان.. انها سيرة طالما احتكمت الى ميدان التجربة الغنائية لوحدها، ولهذا فان يوسف عمر لم يكن ذلك الفنان الذي تكونت لديه ثقافة فنية او غيرها، ان فحص ومعاينة فنه الغنائي يجري بطريقة الاحتكام المحض الى الحقل الخاص بغناء المقامات وليس بحقل اخر.. كما ان النمو الخاص لهذه الطاقة الغنائية جرى بمعزل عن التيارات الثقافية والاجتماعية.. ان نموه ياخذ مداه الفني فقط مضحيا بكل الموحيات الاخرى.. لكن لا يوجد هناك من ينكر ان فن يوسف عمر هو تجربة اصيلة وامتحان لموقعها.. بل هو تجربة محددة المعالم.. لها حصانة فنية وروح عصامية معاندة..

وعلى العموم فان يوسف عمر هو جوهري في حركة المقام العراقي.

يكفي انه ما زال يغني طيلة اكثر من ثلاثين عاما. والحيوية التي يتمتع بها صوته تكفل له موصلة جديدة اخرى على طريق الفن الغنائي الرفيع.

م. الف باء 1978

يوسف عمر.. السهل الممتنع

حسين الاعظمي
باحث ومؤد للمقام

يوسف عمر، الرجل الذي كرس حياته الغنائية في اداء المقام العراقي، بل كرس كل حياته منذ ان نشأ يهتم بغناء المقام العراقي، ذي الروح والتعبير البغداديين، حيث غنى معظم المقامات كبيرها وصغيرها، وقد اجاد ونجح في جميعها على وجه التقريب، واداها بنضوج فطري ترافقها خبرة طويلة في الممارسة، اضافة الى الموهبة التي يتمتع بها..!

ان المقامات التي غناها يوسف عمر تكشف النقاب عن امكانية مؤثرة في الجماهير..! وقد امتاز يوسف بطريقة اداء واسلوب غنائي يقترب من الاسلوب التعليمي، واضح المعالم ودراسي، جاء بالفطرة دون قصد منه. أي ان طريقته الغنائية السهل الممتنع كما يقال في الادب.. ولعل هذه الميزة التي انفرد بها يوسف عمر من اهم اسباب نجاحاته في الاداء وبناء مجده الذي لم يكن يوسف قد حسب له حسابا بالمرة.

بهذه السهولة الادائية فقد كان يوسف قريبا لابسط المستمعين ثقافة، وقد كنت شخصيا استعين بالكثير من تسجيلاته خلال تدريسي للمقام العراقي في معهد الدراسات الموسيقية، باعتبارها نموذجا غنائيا واضحا المكونات في نفس الوقت، وقد اعتمد يوسف في اسلوبه هذا على تبيان عناصر المقام واجزائه في تسلسل واضح وجيد في معظم الاحيان، والسامع يستطيع من اول وهلة ان يتتبع سير او تشخيص محتويات المقام الذي يسمعه بصوت يوسف عمر.. بذلك فقد حصل يوسف عمر على مستمعين من كافة المستويات بمزيد من المتعة، ويمكن تقارب هذا القول في اساليب بعض المشاهير المؤدين الذين حازوا على جزء من صفة السهولة الادائية الذين يبدو حماس الجماهير لهم حماسا صادقا.. وهذه القصيدة الصوفية لشيخ الصوفيين عمر ابن الفارض، المنسوبة ايضا الى البهاء زهير..! ولكنها على الارجح لأبن الفارض، التي يغنيها يوسف عمر في مقام الرست..

غيري على السلوان قادر
وسواي في العشاق غادر
لي في الغرام سريرةٌ
والله اعلم بالسرائر
ومشيبهٌ بالغصن قلبي
ما يزال عليه طائر
حلوُ الحديث وإنها
لحلاوةٌ شقّت مرائر
اشكو وأشكر فعله
فاعجبْ لشاكٍ منه شاكر
يا تاركي في حبه
مثلاً من الامثال سائر
ان حديثي ليس بالمل
سوخ إلا في الدفاتر
لا تنكروا خفقان قلبي
والحبيب لدي حاضر
ياليلُ طالَ ياشوقُ دمْ
إني على الحالين صابر
يُهنيك بدرُكَ حاضر
ياليت بدري كان حاضر
بدري أرقُّ محاسناً
والفرقُ مثلُ الصبحِ
ظاهر

ان هذا الوصف الصريح للاداء المقامي البغدادي، هو من مميزات المقام العراقي كلون تراثي غنائي شامخا بين الالوان الغنائية العربية، وهناك كثير من المتعة والقناعة التي يستطيع فيها يوسف عمر ان يعطيها بتعبيراته العاطفية ذات الجاذبية التي يستمتع بها المستمع..

يمكن ان يكون هناك اعتراض في ان كل هذا يحدث على الصعيد المحلي، ولكن رغم ان هذا الاعتراض فيه بعضا من صحة القول، الا انه يمكن ان نقول بان المقام العراقي من خلال مؤديه المشاهير قد تمكن بنجاح مطرد من وضع كيانه الادائي ضمن خارطة الغناء العربي المنتشرة هنا وهناك من مناطقنا العربية بل وحتى خارجها ...

– قد يتساءل جمهور المقام العراقي عن امكانية ظهور يوسف عمر كمؤدٍ للمقامات بدون القبانجي..؟!

– او هل ان يوسف عمر ظهر بأفول نجم محمد القبانجي..؟!

اني اشك في هذا.. ان اساليب التذكير المبنية في داخل اداء كل منهما توضح لنا الميزة الفارقة بينهما من خلال ادائهما للمقام العراقي وما يسمعه السامع، ذلك على الرغم من ان كثيرا من فن يوسف عمر وصفاته الادائية وطريقته التي بنى عليها اداءه للمقام العراقي، كان قد استقاها من استاذه محمد القبانجي، الا ان يوسف عمر ليس بسارق افكار او اساليب وطرق غيره..! ليس بسبب اسلوبه الادائي المستقى.. وانما لأن السامع يشعر انه يسمع شيئا يختلف عما يسمعه في مقامات استاذه محمد القبانجي..! على الرغم من وجود كثير من اوجه التشابه في بناء المسار اللحني وتطبيق الاصول المقامية بينهما، الا اننا نلاحظ ان هناك اسبابا اخرى لنجاح يوسف عمر في ادائه، منها..

فارق الزمن.. فالقبانجي برز في العقود الاولى للقرن العشرين، اما يوسف فانه ظهر بعد منتصف هذا القرن.. ولا شك ان هذا الفارق الزمني في العصر الحديث يعتبر فارقا زمنيا كبيرا، للتطور السريع المستمر في الزيادة الحاصلة لشتى مجالات الحياة.. فالتعبير عن روح عصر كل منهما يختلف بطبيعة الحال، مع اضافة ان القبانجي ارستقراطي الطبع في حضوره الادائي..! بينما يوسف عمر شعبي الطبع في حضوره الادائي..! ولعل هذه البساطة في اداء يوسف عمر جعلته ايضا، قريبا الى اسماع الجماهير بشكل ملفت للنظر ...

من خلال هذه الميزة التي يتمتع بها يوسف عمر في ادائه الذي اطلقنا عليه صفة الشعبية.. فانه يعتبر اقرب المؤدين قاطبة من التعبير الادائي للروح البغدادية الى الجماهير ... واخيرا فان كلا من القبانجي وتلميذه يوسف عمر يتمتعان ببراعة احترافية جيدة جدا.. وهذا مقام العجم عشيران بصوت يوسف عمر بهذه القصيدة..

تحنُّ نياقُ الضاعنينَ وما لها
تحنُّ وفي القلبِ المشوق
حنين
ابا النوق ما للضاعنين من الأسى
ووجدٌ بإحشاء الضلوع
كمين
فالقلبُ لمّا اجمعَ الركبُ صابر
ولا الدمعُ من بعضِ الفراق
مصون
سكبتُ لها من هذه العينين عبرةً
وإني بها لو لا الغرام ضنين
اذا كنتِ لا تدرين ما الشعرُ بالحشا
سلي عني الاشواق كيف
تكون
جننتُ بحبِّ العامرية والهوى
جنوناً ولكن الجنون فنون

من ناحية اخرى فقد امتاز يوسف عمر كما ذكرنا آنفا بالروح المعبرة عن البيئة البغدادية في كل ادائه..!

وكذلك تميز بنقله للاصول (الشكلية Forms) والشروط المقامية من حيث مساراتها اللحنية وتعبيراتها من السابقين الى اللاحقين بكل امانة واتقان، فلم ينقص منها شيئا، وكذلك لم يضف اليها جديدا..! سوى انه عبر عنها باسلوب جمالي فذ استمعت اليه الجماهير المعاصرة ... وقد كان امتلاكه (للبحة) الجميلة التي تأتي ضمن الترديدات المتكسرة في الاداء وتسمى ايضا (البنتاية) اثرا جميلا خلال ادائه، خاصة في الابوذيات التي تعلمها من الملا نوري النجار، هي الاخرى ميزة له ...

امتاز يوسف عمر ايضا بحفظه المثير للقصائد والزهيريات والابوذيات والاغاني الكثيرة، على الرغم من كونه لم يتعد المرحلة الابتدائية في الدراسة...

كذلك امتاز صوته بمساحته الكبيرة التي تتسع لمدى لحني لأكثر من اوكتافين، وعليه فان صوته متكامل بالنسبة للمساحات التي يحتاجها اداء المقام العراقي وهي بلا شك مساحات واسعة جدا. فنوع صوته من فصيلة صوت (التنور).

بالرغم من كل هذه الميزات الايجابية في صوت واداء يوسف عمر، فاننا لو تطرقنا بالحديث عن صوته كخامة صوتية فاننا سنكتشف انه يحتوي على بعض الثغرات والرضوض عند الاداء..! ومن المؤكد ان يوسف عمر كان يدرك هذه الناحية في صوته حسياً، وظلت محاولاته في معالجتها معالجة عن طريق الخبرة فقط، ولذلك نستطيع ان نلاحظ هذه العيوب في بعض من مقاماته.. مثلا تكون نهايات المقاطع غير متقنة، او ان صوته احيانا يرتفع وينخفض نسبيا داخل الطبقة المغناة دون ان يدرك ذلك، او دون ان يتمكن من تداركها..!

واضافة الى ان احاسيس فنان مثل يوسف تكون متقنة حيث كان جمال صوته وتعبيراته المقامية الاصيلة تعويضا رائعا لهذه العيوب التي يثير بها الجمهور ليخلو مع خيالاته وعواطفه..

اما من حيث الاداء فقد كان يوسف في كثير من مقاماته، كثير التفصيلات والاسهاب، لا يختزل منها شيئا، حتى تتكرر جملة ما عدة مرات، كذلك يسمح للعازف عندما يحاوره بآلته الموسيقية وقتا اكثر مما يجب على حساب ترابط العلاقات الغنائية والموسيقية مع بعضها لصياغة عمل مقامي كوحدة متكاملة، وخطورة هذا المنحى الاسهابي في الغناء يكمن في احتمال الوقوع في شرك الضعف والركاكة، ومن ثم تجزئة الجمل اللحنية في وحدات متفرقة ضمن عملية البناء الفني لغناء المقام المغنى، ولكن والحق يقال ان يوسف عمر رغم مغامرته هذه، فقد نجا من هذا الشرك في كثير من الاحيان، وقد استطاع بخبرته ومقدرته وتجربته الادائية ان ينتشل اداءه المسهب من الضعف، واقرب مثال على ذلك، هو اداؤه لمقام النوى الذي اصاب به نجاحا كبيرا رغم الاسهاب والتكرار في لحن ابيات القصيدة، وبالتالي فقد احرز العون من لدن الجماهير المحبة للمقام العراقي، فكان يوسف عمر منذ بداياته ولم يزل يغني مقام النوى الذي اداه بأقصى امكانيته التعبيرية وموهبته وخبرته الادائية بقصيدة ابن معصوم الشهيرة :

اما الصبوح فانه فرض
هذا الصباح بدت بشائره
يسقيها من كفه رشأ
والكاس اذ تهوي به يده
فانهض الى صهباء صافية
والليل قد شابت ذوائبه
لا تنكروا لهوي على كبر
سيان خمرته وريقته
بات الندامى لا حراك بهم
مهلا فليس على الفتى دنس
فعلام يكحل جفنك الغمض
ولخيله في ليله ركض
لدن القوام مهفهف بض
نجم بجنح الليل منقض
قد كاد يشرب بعضها البعض
وعذاره بالفجر مبيض
فعلىّ من زمن الصبا قرض
كلتاه ماضي عنبه محض
الا كما يتحرك النبض
في الحب ما لم يدنس العرض

يوسف عمر يؤدي المقام

يوسف عمر المتمسك بالمقام حتى اللحظات الاخيرة

يحيى ادريس
خبير موسيقي

ربما يثير هذا العنوان عشاق المطرب المقامي الكبير يوسف عمر واحصد منه نقدا لا استحقه بعد ان اوضح مكانة هذا المبدع البارع في غناء المقام العراقي.. واذا كان يوسف عمر قد خرج من معطف شيخ المقامات محمد القبانجي فأن الكثير من عشاق المقام يفضلون يوسف عمر على القبانجي لانهم واكبوا عطاءه واستأنسوا استمراره المقامي في الوسائل الاعلامية وفي عرينه (خان مرجان) بصحبة الفنان الكبير شعوبي ابراهيم.

ان يوسف عمر اجاد بالتمام والكمال اداء جميع المقامات العراقية والابوذيات والعتابات لكنه لم يضف شيئا للمقام العراقي كما اضاف استاذه القبانجي ولم ينصف صوته وفنه لرغبته القاسية في الغناء اليومي وفي اية مناسبة حتى وان كانت متواضعة الهيأة والترتيب واتخذ من المقام وسيلة للارتزاق وهذه الملاحظة ليست ضده ولكن المبالغة فيها تقترب من ضده بعض الشيء.. ومع هذا وذاك اصبح يوسف عمر مدرسة مقامية حفلت باعداد كبيرة من مقلديه الذين اساءوا له من دون قصد مقصود والذين تعاشقت ميولاتهم في غناء نفس القصائد والموالات والابوذيات ، وحتى في هيئته الشكلية مثل اعتماده السدارة في الرأس وتخطيط الشوارب وجلسته واعوجاج شفتيه وحركة سبابته اليمنى على فخذه الايمن ولم يظهر مطرب تمكن من اضافة لمحة ايجابية ليوسف عمر.. وكان يقول لي : ان هؤلاء مشكلة كبيرة وانت تتحمل هذه المشكلة .. لقيامك بتقديمهم في برامجك التلفزيونية وفي الحقيقة كان يستثنى منهم المطرب المثابر حسين الاعظمي . علما ان الاعظمي لا اجده مقلدا ليوسف عمر بل هو مطرب له شخصية متميزة في شكلية غناء المقام العراقي وسأكتب لاحقا عن مبادرات الاعظمي.

ان يوسف عمر المدمن اللحوح على غناء المقام العراقي افسد صوته في المواليد النبوية الشريفة خاصة مع المقرىء عبدالستار الطيار الذي يملك صوتا حادا لا يراعي فيه مستلزم الالة الموسيقية.. وعرف يوسف عمر بعناده الغريب فكان يصارع الطيار في المواليد وبالتحديد بالطبقات العالية الامر الذي اثر على اوتاره الصوتية وباتت ضعيفة وكان يتحايل على الميانات باعوجاج شفتيه وتقطيع الميانات.. ومع الاسف الشديد ان الاعلام المرئي والسمعي تمسك بيوسف عمر بعد منتصف السبعينات، فيما كان صوته متعبا كما ان جميع المخرجين لم يحسنوا تصوير مقامات يوسف عمر وكانوا يقربون العدسة الى فمه في الصيحات العالية ورجفة رقبته واضحة وكنت اطلب من المخرجين ابعاد العدسات في هذه الوضعية لكن اهمال المخرجين ظل في خبر كان فنصحت يوسف عمر في بداية الثمانينات بالامتناع عن التصوير لان مظهره لا يشجع على مشاهدته لكنه رفض وطلبت منه الاعتزال عن الغناء فامتعض ... اجل فأن يوسف عمر المطرب المقامي الكبير كان مصرا على الغناء في اسوء اوضاعه الصحية.. وهذه الظاهرة تعيش مع جميع المطربين المقامين والريفيين والبدويين .. ولا ادري لماذا يرتضي المطرب ان يغني وحالته الصحية مترديه وصوته منطفيء بالكامل.. ان حب المهنة نعمة ونقمة في آن واحد.. واتذكر انني كنت مع يوسف عمر وهو راقد في المستشفى ويعاني الما حادا فعندما تمنيت له الشفاء العاجل قال لي نصا : (هم بعده حمزة السعداوي يغني بخان مرجان؟) .

بقي القول ان يوسف عمر افضل مطرب مقام حافظ على الاسلوب البغدادي الاصيل ولم يقلد استاذه القبانجي في تغيير التمارير المقامية او ادخال الاهات والميوعات المصرية في تفاصيل المقام.. لان المقام من وجهة نظره تحفة نغمية لا يصح التلاعب بها كما لم يجرؤ على استحداث بستات خاصة به وكانت لغته سليمة في اللفظ ومخارج الحروف وغنى مقام (النهاوند) بقصيدة شعرية واضح في غناء جميع المقامات على مقام القطر الذي صاغه القبانجي في اطار اجتهاده . لكن يوسف عمر اخطأ في عدم توثيق نشاطه في مكتبة خاصة سوى المحاولات الممتازة لصديقه الموثق سمير الخالدي.

ان يوسف عمر متجذر في الذاكرة المقامية لانه اهمل كل شيء في حياته واعتنى بالمقام العراقي وسما به وعلا من شأنه طيلة اكثر من اربعين سنة ويستحق منا اقامة اكثر من مهرجان ومؤتمر.. للخدمة الجليلة التي قدمها للمقام وذات الشيء ينطبق على حسن خيوكه وعبدالرحمن العزاوي وعبدالهادي البياتي وحضيري ابو عزيز وداخل حسن وناصر حكيم وعبد محمد ومجيد الفراتي لان المقام والاطوار وروادهما لم ينصفوا اعلاميا كما انهم لم ينصفوا مجدهم. لجهلهم باهمية التوثيق الذي يعد ذاكرة المستقبل الحي

يوسف عمر بين التقليد والتجديد

حتى ستينات القرن الماضي كانت خارطة الغناء العراقي محدودة الرواد، رغم المساحة الواسعة ذات الألوان المتعددة التي يزخر بها الغناء العريق لبلاد الرافدين منذ أقدم العصور، متمثلة بالغناء الريفي ذي الأطوار المتعددة من "الأبوذية" والمواويل والغناء الشعبي وتلاحمه مع الغناء البدوي كالعتابة والركباني والنايلي والسويحلي ...

خالد جواد شبيل

أما الغناء المديني فقد تسيده الغناء البغدادي كالبستات والمقام العراقي، مع خصوصية للغناء البصري وخصوصية أخص للغناء الموصلي. بيد أن الغناء البغدادي الحديث بقيت له السيادة على العراق كله قبل أن يغزو الغناءُ البيني(الريفي - المديني) منذ السبعينات الغناءَ العراقي ويطبعه بطابعه ومن ثم انتشاره السريع الى دول الجوار ودول الخليج. ناهيك عن التراث الغنائي الثر للكرد والتركمان والذي يتداخل مع المقام العراقي في كثير من المقامات كالبيات ولا سيما القوريات، والكرد، والأورفة، والنهاوند، والسيكاه العراقي (الخزام)...الخ.

لم يكن طريق الغناء سالكا أمام الهواة لأسباب عديدة ذاتية وموضوعية، كما أن اختراق حاجز لجان الفحص والإختبار صعب جدا وقتذاك، وتكون الصعوبة مضاعفة لمن رام المقام العراقي مسلكا، ذلك الغناء الصعب، بسبب سعة المقامات وتنوعها، وتشعبها وكثرة مسمياتها، مما يتطلب ثقافة نظرية بالأنغام الشرقية وأذنا موسيقية مرهفة التمييز للصوت درجة ونغمة، وخبرة يصقلها المران وكثرة الإستماع، اضافة الى الشرط الأهم هو التكامل الصوتي للمطرب أي سعة المساحة الصوتية بين القرار والجواب، وطول النفس، والجمال، والأخير يتعلق بالخصائص النوعية للصوت، فما كل صوت عال يصلح للمقام كما هو شائع، بل أن القرار لا يقل أهمية عن الجواب، فهناك أصوات عالية لبعض (مطربي ومطربات) المقام تخلو من جمال النبرة بل تسبب صداعا وقد ترفع الضغط أحيانا!! كما أن القرار الجميل وحده لا يكفي لقصوره في بلوغ الميانات والترجيعات الصوتية العالية. في حين يكمن روعة القرار وحسن ادائه في التحرير (البدوة) ونهاية القطعة (الجلسة)، وخاتمة المقام التسليم (التلوة)

في عام ١٩٤٨ - وهذا العام مهم في تاريخ الغناء العراقي، لأنه سجل ولادة أكثر من مطرب مثل شعوبي ابراهيم وناظم الغزالي- تقدم شاب قوي البنية، مهيب الطلعة، قد أتم ثلاثة عقود من عمره، تقدم بخطى واثقة الى دار الإذاعة العراقية لمقابلة خبير المقام العراقي المشهور سلمان موشي، ليتعرف على أمكاناته الغنائية بعد أن شبع إطراء من كل من استمع اليه. طلب منه الخبير أن يبدأ بالرست ، فغنى ثم طلب منه أن يتحول الى السيكاه فلبى، وقاطعه الى البيات... وطلب منه قطعا فأدى، مما أدهش الممتحِن، وجعله يصرح بكلمة لن ينساها الشاب طيلة عمره: أنت مطرب مقام متكامل، سائلا أياه أين كنت طوال هذه الفترة؟ وكان الجواب: كنت أسمع، عندها اعتُمد يوسف عمر مطربا في الإذاعة، حيث يكون الغناء حيا على الهواء، ولا مجال لتصحيح الخطأ إن ارتُكب.(من مقابلة تلفزيونية مع يوسف عمر، فحواها من الذاكرة). وسلمان موشي هذا مرجع من المراجع الكبار في المقام العراقي هُجِّر -للأسف- الى اسرائيل مع من هُجِّر من عمالقة آخرين كالأخوين داوود وصالح الكويتي وغيرهم من المواهب العراقية اليهودية ... يكفي أن نذكر أن سلمان موشي قد أخلف قارىء المقام العراقي الشهير رشيد القندرجي (١٨٨٧-١٩٤٥) كخبير في المقام في الإذاعة العراقية.

عرف القرن الماضي مدرستين في تأدية المقام العراقي، المدرسة المحافظة في قراءة المقام والتي تزعمها المطرب رشيد القندرجي، والتي تعتمد آلات التخت الشرقي، السنطور، الجوزة والطبلة... اشتهر هذا المطرب باسلوب الترجيع اللحني (الميلودي) بدل الكلمات والتي تتيح له تجاوز أوكتافا تقريبا للمدى الصوتي العادي، من خلال التلاعب بالحبال الصوتية جزئيا أوكليا بما يعرف بالفالستو من الإيطالية(falsetto) وتعني التكلف، وهذه التقنية معروفة بالإداء الاوبرالي أيا كان المؤدي رجلا أو إمرأة،، بينما يذهب الأستاذ عصام الجلبي أن هذا الأسلوب يعرف لدى قراء المقام بالزير. (راجع: iraqiart.com). أما المدرسة الثانية فكانت مدرسة التجديد التي وضع اسسها الأستاذ الكبير محمد القبنجي (١٩٠١-١٩٨٨)، الذي طور الأداء وجعله اكثر استرسالا وتطريبا، أي نقل المقام من القراءة الى الغناء، وادخل عليه آلات موسيقة لا قبل للمقام بها من قبل كالكمان والقانون والناي والعود، كما استطاع أن يبتدع مقام الحويزاوي وان يجعل من مقطوعات صغيرة مقامات كاللامي والقطر...

لم يكن طريق الغناء سالكا أمام الهواة لأسباب عديدة ذاتية وموضوعية، كما أن اختراق حاجز لجان الفحص والإختبار صعب جداً وقتذاك، وتكون الصعوبة مضاعفة لمن رام المقام العراقي مسلكا، ذلك الغناء الصعب، بسبب سعة المقامات وتنوعها، وتشعبها وكثرة مسمياتها، مما يتطلب ثقافة نظرية بالأنغام الشرقية

يوسف عمر مع الفنان اسماعيل الموصلي

في بداية حياته الفنية قلد يوسف عمر استاذه القبنجي، ثم سرعان ما جمع بين هاتين المدرستين واستطاع أن يبتدع اسلوبا خاصا به لاقى رواجا كبيرا لدى العراقيين، كما استطاع أن يضيف خبرة قلما يذكرها المعنيون بدراسة المقام ألا وهي تطعيم المقام بالغناء الريفي، وهذا التأثير يرجع الى المطرب الفراتي الكبير عبد الأمير الطويرجاوي، وخاصة في الإنتقال من مقام الصبا الى البيات "عزيز وخلفت بالكلب..."، وكذلك الأنتقال الى الغناء البدوي النايل والسويحلي...إن الإنتقال من مقام الى آخر أو من نغم الى آخر بانسيابية وحسن تخلص صفة لا يستطيع عليها كل من ولج هذا الفن بل هي ميزة الكبار مثل القبنجي وحسن خيوكة ويوسف عمر، وقد يلمس القاريء ذلك بغناء الحفلات التي أبدع بها مطربنا العظيم. والتي مصدرها الإستماع في المقاهي البغدادية لكبار المطربين، والأهم منها تمرسه في المنقبات النبوية والأذكار، حيث الصوت عاريا بدون موسيقى وبدون مايكروفونات(وقتذاك) والإرتجال والأسترسال وحسن الإنتقال هو المختبر الحقيقي للمطرب الكبير، أما أن يؤدي المطرب المقامات فرادا ويسير بحرفية الاداء كالقطار على السكة وبوتيرة واحدة لا روح فيها: تحرير- ميانة- تلوة- بسته ثقيلة، فهو تنفير للسامعين وقتل لروح الإبداع!!

امتاز مطربنا بقوة الصوت من درجة التينور (نحو البريتون مع تقدم العمر) مع بحة خفيفة تزيده شجى وتأثيرا، وإنراج للحروف من مخارجها الصوتية بكل وضوح فلا يلتبس الكلم على السامع، مع قدرة صوتية متكاملة تصحبها إمكانية هائلة على التحكم بالصوت، وإخضاعه للنص علوا وانخفاضا، مع قابلية على الترجيع، والأستغراق بالميانة لعدة ابيات مما يدل على طول نفس، ومحافظه مدهشة على هوية الصوت في القرار والجواب، هي المميزات الصوتية والأدائية ليوسف عمر، حتى ليبدو للسامع ان يوسف عمر يغني بقلبه لا بحلقه، تتجلى هذه الخصائص في المقامات الكاملة كالرست (غير على السلوان قادر،لابن الفارض)، والصبا (هو الليل يشجيه الأسى فيطول للرصافي)حجاز ديوان(ياحمام الدوح غرد طربا لعبد الغفار الأخرس) والسيكاه (عاهدوا الربع ولوعا وغراما للمرعي اليمني)، الحسيني (ما لنا كلنا جو يارسول للمتنبي) على سبيل المثال، وفي مقام الأوج/ السيكاه العراقي أبدع يوسف عمر أيما إبداع في (جسمي كطرفك في هواك عليل× وقصير ليلي من جفاك طويل) حيث يحلق مطربنا كالنسر في ميانته الى أعلى مدى لعدة أبيات ثم ينخفظ الى التسليم الذي يستغرق قرابة عشرين ثانية أو أكثر! وقد اشتهر يوسف عمر في مقام البنجكاه/الرست في صيحته المشهورة من درجة المحير التي يستغرق فيها برهة غير قصيرة والتي الهبت الجمهور تصفيقا(جسد أشبه شيء في الخيال)...

أمتاز يوسف عمر بالطريقة التأثرية- التعبيرية بالغناء، وبحسن اختياره للقصائد الذي يدل على ذائقة شعرية راقية، تردفها ذاكرة قوية اختزن فيها مئات من القصائد والمواويل وألوانا من الشعر الشعبي والريفي والبدوي، من غير البستات البغدادية التي كان يؤديها بطريقة مؤثرة تدل على احساسة بما يغني في كل ما غنى وكان مميزا في اختيار الابيات التي ينفعل بها بالميانات مما يدهش الجمهور المستمع. كما كان حريصا على ضبط النصوص لغويا مما ابعده عن اللحن (هو أقل المطربين لحنا) وكان يعرف تماما ماذا يغني حسب طبيعة الجمهور، فلجمهور يشكل العسكريون غلبته كان يتحفهم بالمواويل والبستات مع مقامات قصيرة، وللمثقفين كان يغني المقامات الثقيلة، وفي جميع الحالات تجده ذلك الفنان المجلى الذي لا يضاهيه آخر..

من المواويل غنى لكبار الشعراء بما فيهم الحاج زاير النجفي وجبوري النجار... أبدع في الحكيمي/ السيكاه، حيث غنى (يا كلّب ود اللي يودك وترك الخلوك) ثم ينتهي بالركباني(نامت الناس وما تيسر منامي)، ومن الكرد (جربتهم مافوا بالغانمات معاي)، ومن الحجازكار(أدفن غرامي بلب حشاشتي وادم)..

ومن الشعراء الكبار -اضافة لماذكرنا آنفا- غنى لأبي نواس سينيته المشهورة (والله ما شرقت شمس ولا غربت×إلا وذكرك مقرون بانفاسي) مقام نهاوند، ولابن معصوم الحسيني الحسيني (أما الصبوح فإنه فرضٌ× فعلام يُظهرحسنك الغمضُ) على النوى/نهاوند، ومن الجدير بالذكر أن المياثة كانت بالبيت المتاع الذي جسده اروع تجسيد(لاتُنكروا لهوي علي كبَر× فعلي من زمن الصبا قرضُ)، وللحبوبي غنى رائعته (يا

أمتاز يوسف عمر بالطريقة التأثرية- التعبيرية بالغناء، وبحسن اختياره للقصائد الذي يدل على ذائقة شعرية راقية، تردفها ذاكرة قوية اختزن فيها مئات من القصائد والمواويل وألوانا من الشعر الشعبي والريفي والبدوي، من غير البستات البغدادية التي كان يؤديها بطريقة مؤثرة تدل على احساسة بما يغني في كل ما غنى وكان مميزا في اختيار الابيات التي ينفعل بها بالميانات مما يدهش الجمهور المستمع

يوسف الحسن فيك الصبُّ قد ليما× ولو رأوك هووا للأرض تعظيما)من مقام المنصوري/صبا، وكانت المياثة (إذا رأتك النصارى في كنائسها×مثلثا ربّحت فيك الأقانيما)، وللحبوبي أيضا غنّى رائعته (شربناها فخامرت النفوسا×تجلت في زجاجتها عروسا) من مقام السيكاه العراقي(خزام)، (ومقاطع من شمس الحميا، صبا) ولجميل صدق الزهاوي (ياشعر إنك صورة لضميري×يبديك حزني تارة وسروري)من مقام عجم عشيران، والتسليم بالبيت(أحمامة غنت بجانب دجلة لم يبق مستمع إليك فطيري)، ولو واصلت لملّ القارئ.

شكل يوسف عمر والفنان الخبير الأستاذ شعوبي ابراهيم (١٩٢٥-١٩٩١) عازف الجوزة منذ بدايته ثنائيا مبدعا قلما يفترق، وكان التفاهم بينهما والإنسجام لا تجد له مثيلا بين قائد فرقة مقتدر ومطرب مقتدر ايضا، كان صوت الجوزة الحاد يصدح لا يلينه الا صوت يوسف عمر القوي الشجي، وتبدو بقية الآلات مساندة في المقدمات والدواليب الموسيقية، بيد أن الحوارات بين الجوزة والسنطور الأستاذ الكبير بقيادة عبد الله علي في مقامات الأوج والمنصوري والحسيني... تضفي على الألحان الجادة هيبة ووقارا. ولد يوسف عمر داوود البياتي في محلة جديد حسن باشا في الرصافة من بغداد عام ١٩١٨، وقد نشأ يتيما، وعهد الى عمه بتربيته وكان يصطحبه منذ الصغر الى الأذمار والمواليد، فأبدى ميلا كبيرا نحو الغناء، وسرعان ما نمت موهبته معتمدا على نفسه وأخذ يتردد على المقاهي التي يقرأ فيها المقام العراقي، شارك في المنقبات النبوية وواضب عليها حتى احترف الغناء في الإذاعة - كما اسلفنا- احتل المرتبة الثانية بعد استاذه الكبير محمد القبنجي، وقد أتقن وغنى جميع المقامات العراقية حتى الصغيرة منها وغنى باللغة التركية بعض المقامات مثل مقام تفليس/ السيكاه حيث أدى دور المطر رحمة الله شلتاغ، وفي الخمسينات شارك في فلم سعيد افندي حيث قرأ الصبا.

توفي في ١٥ تموز عام ١٩٨٦. وقد ترك آثارا قوية في اسلوب غناء المقام، كما أثر بمن عاصره ومن أتى بعده من القراء مثل الأستاذ الكبير الراحل حمزة السعداوي، وأقرب من غنى باسلوبه المطرب الكبير حامد السعدي والمطرب الكبير الاستاذ حسين الاعظمي وغيرهم.

لم تصدر دراسات تتناول هذا المطرب الكبير ولم يعط حقه من تلاميذه بما يتناسب وقامته الفنية، قرأت عنه كتيبا، هزيلا يحمل اسم هذا الفنان "الفه" أحد العازفين الشباب،احتوى نبذة مبتسرة مع نصوص الأغاني والمقامات لم يسلم بيت منها من خطأ، وحوى هذا الكتيب مقالة مقتبسة مهمة للأستاذ حسين الأعظمي، كما احتوى كتاب الأستاذ ثامر العامري"المقام العراقي" على مقالة عن حياة الفنان. وبهذه المناسبة أدعو وزارة الثقافة ونقابة الفنانين، أن تلتفت الى هؤلاء العباقرة الكبار لتطلق أسماءهم على قاعات أو معاهد فنية إن لم تقم لهم تماثيل تخلدهم.

اعضاء برنامج (الجالغي البغدادي)

قصة وأغنية

الفنان يوسف عمر ... يبوح بأحزانه

د- رحيم العكيدي

الفنان يوسف عمر صوت بغدادي اصيل في الحلقات الغنائية السابقة من الموروث العراقي الاصيل تحدثنا عن الطور الغنائي ما بين دجلة والفرات والحنين الى الوطن والامة والغربة التي انتابت قلوب العراقيين وهم خارج وطنهم العراق مما اضاف نوعاً من العواطف الجياشة في ابجدية الاغنية العراقية وانساب اريج الحب الى كل قرية ومدينة عراقية فأبناء الجنوب استخدموا لون النايل والغناء الريفي بصوت وحيدة خليل وحضيري ابو عزيز وداخل حسن وناصر حكيم وحسن داود وحسين نعمة وغيرهم . اما الفرات الاوسط فقد انتشر فيه لون السويحلي والابوذية والهجع وتميز ابناء المناطق الغربية بالدبكات والجوبي .

اما العاصمة بغداد فقد تميزت باللون البغدادي وخاصة المقام العراقي في مناطق واحياء الاعظمية والكاظمية والمشاهدة وسيد سلطان علي والفحامة والبياع والفضل وراغبة خاتون وغيرها من احياء بغداد الحبيبة وظهر من بين قراء المقامات العراقية الفنان محمد الكبنجي ويوسف عمر وعبدالرحمن خضر وناظم الغزالي وبليغ توفيق وصديقه الملاية .

وقد كان للفنان يوسف عمر النصيب الاكبر في قراءة المقام العراقي البغدادي وكذلك الاغنية العراقية في المناسبات البغدادية الحافلة بكثرتها في احياءالعاصمة وقد شاركته في ذلك فرقة موسيقية بقيادة الفنان هاشم الرجب عازف الجالغي البغدادي .

ولد الفنان يوسف عمر في مدينة بغداد الكرخ عام ١٩٢٥ ودرس العزف على العود في بغداد ودمشق ثم احيا العديد من الحفلات الغنائية في دمشق وحلب بعدها سافر الى عمان والقاهرة وتركيا حيث التقى بمحبي الفن والطرب العراقي وكان يغني في اذاعة بغداد ومحطة التلفزيون فأحبه اهل بغداد لعذوبة صوته وترانيم حنجرته واستخدامه للكلمات البغدادية واللهجة البغدادية وقد غنى الكثير من الاغنيات منها : يخشوف التروح للبصرة ، وجواد جواد ، والمجرشة ، ومحابس ذهب ، والله يمجرى الماي ، والحلو ، ومقام اللامي ، والسيكاة والحسيني ، والحويزاوي ، ومقام الصبا ، وواكف على المسعودي وغيرها وغيرها .

احب الفنان يوسف عمر ابنة خالته وضحة وكانت من مدينة عانه إلا انها كانت تسكن مدينة بغداد الرصافة بالقرب من مقام الامام الخضر على الجهة الثانية لنهر دجلة بجانب الرصافة وقد احبها حباً جماً إلا انها في يوم عيد الاضحى عبرت شط دجلة مع عائلتها لتزور حبيبها العزيز الفنان يوسف عمر على جهة الكرخ بواسطة الزورق فانقلب بها وكانت مياه دجلة غزيرة فلم يستطع احد انقاذها مع اخيها وضاح وامها مديحة فحزن الفنان يوسف عمر عليها ولبس ثياب السواد وطلب من الفنان الملحن الغنائي رضا علي ان يكتب له اغنية الخشوف ومعناها « الصبايا » يخشوف التروح العانة ..

وأحباب قلبي تجي من عانة ..

يمه كتلني الحلو إيعانه..

لابس محابس ذهب وتوجيه ..

وكانت (وضحة) من سكان مدينة عانه العراقية غير أنه أحب امرأة ثانية من مدينة بابل (الحلة) فأهداها أغنية شبيهة بأغنية (وضحة) وفاءاً لها وللحبيبة الجديدة ...

يخشوف التروح للحلة ..

وأحباب قلبي تجي من الحلة ..

يمه جتني الحلو هل مرة ..

فوق المتيم لبس خاجية ..

-غادر الفنان يوسف عمر عام ١٩٦٠ الى اليمن ودول الخليج العربي والسويد واستراليا فأطرب الحاضرين بصوته البغدادي الأصيل وبالمقامات والأبوذية العراقية

واقف على المسعودي ..

ناثر قصايب سودي ..

يغني ويدك بالعودي ..

٠٠٠٠

يابويابو حجول الفضة ..

دربك عليه مره ...

يابو تراجي ذهبي ..

عذبت بيه عكلي ..

- واطرب الفنان يوسف عمر حاضريه عندما غنى في بغداد عام ١٩٧٠ قصيدته التي نظمها الشاعر أحمد رامي من مصر ،ومطلعها (المعصم) وعلى وزن السيكاه من المقام العراقي..

حطمَ الوجد ركن صبري

وطافت لوعتي بين زمزم و الحطيم ..

-وغنى في مقام الصبا على نغم النهاوند..

أشكوا لذات الخال ماصنعت بنا

تلك العيون وما جناه المعصم ..

-أصيب الفنان يوسف عمر بمرض عضال توفي على أثره ودفن في بغداد الكرخ عام ١٩٩٢ فنعاه عشاق فنه ومحبي طربه من العراقيين والعرب ورثاه الشعراء وكتب عنه الكثير من الكتاب والصحفيين رحم الله الفنان يوسف عمر ..

مع الراحل خضير الشبلي

يوسف عمر.. المقام الاخير

لـقـاء مـعـه عـلـى فـراش الـمـوت

د. هاشم حسن
صحفي عراقي

يوسف عمر، صاحب الصوت الجمهوري العذب وشيخ فن المقام في العراق يرقد الان في مثواه الاخير، بعد ان رقد فوق فراش المرض سنوات طويلة.

كنا الى جانبه في اواخر ايامه، وفي اللحظات الصعبة التي اجتازها وحاورته، فكان لقاؤنا هذا اللقاء الاخير، وكان هذا المقام آخر مقام غناه.

يوسف عمر، اصبح قارئ المقام الاول في العراق بعد الفنان محمد القبنجي. وفي ما يلي الاسئلة واجوبته عليها:

– يوسف عمر، الا تشعر بالندم على ما بذلته من عناء طوال السنين؟

× لا.. لست نادماً على انني سلكت دروب المقام واحترفت الفن، ولو قدر لي ان اموت وابعث من جديد، لما اخترت طريقا آخر، الفنان ليس لقبا ينالـه المرء بقرار، وانما هو موهبة تنمو مع الحياة وتجاربها وتشق طريقها في الصخور ولا تتحقق ذاتها بمجرد رغبة الفنان.

–إلا ترد قلة عدد قراء المقام في الوطن العربي؟

× انه فن صعب يحتاج الى مقدرة صوتية وحنجرة من نوع خاص بالاضافة الى انه يحتاج الى الصبر، بالمقام يستوجب دراسة القواعد والاصول النغمية ووسائل الاداء واداب القراءة الصارمة.

وكل الذين دفعتهم احلام الشهرة السريعة من انصاف الموهوبين تركوا المقام منذ الدرس الاول وراحوا يحققون احلامهم عن طريق الاغاني السهلة، ان الاجيال الغنائية الجديدة لا تجيد اداء ابسط انواع المقامات بالدقة والعناية المطلوبتين، بل ان اعظم الاصوات واشهر النجوم تنهزم دون شك في هذا الاختبار، وهم بدلا من الاعتراف بهذه الحقيقة يتهمون المقام ويشككون باذواق مستمعيه.

– واين وصلت مع المقام؟

× خلال رحلة فنية طويلة انتزعت من عمري عشرات السنين، تمكنت من اداء كل انواع المقامات الاصول والفروع، ويشهد لي الجميع بانني قد اتممت وخضت كل فنون القراءة في هذا الفن.

ولا اعتقد ان هناك من سبقني في هذا الحال سوى معلمي وشيخي الفنان محمد القبنجي.

– ولكن هذا لا ينفي ان هناك نخبة من الشباب تؤدي المقام.

×منذ سنوات وانا اراقب معي مجموعة من الشباب للسيطرة على قواعد المقام واصوله، وقد استمعت لبعضهم، خصوصا طلاب معهد الدراسات النغمية واساتذته وهو الجهة المعنية بهذا الفن وبالاته الموسيقية، اكتشفت ان هناك خامات جيدة تحتاج الى وقت وجهد حتى تتبلور القدرة على الاداء.

– اذا كنت قد ورثت هذا الفن عن القبنجي، فمن هو وريثك او خليفتك؟

× ليس المقام وراثة او عرشا يتطلب وليا المعهد الناس وحدهم هم الذين سيقررون من الاجدر بحمل رسالة هذا الفن، ولست انا الذي اقرر.

لا شك في ان هناك الان قراء للمقام الفنان حسين اسماعيل قارئ جيد متمكن من الاداء.

– ماذا يميزك عن غيرك؟

× حبي الكبير لهذا الفن، واتقاني لكل انواعه، ثم انني وضعت العديد من الاشعار للمقامات.

– كيف كانت البداية؟

× في العشرينات من هذا القرن كنت تلميذا في احدى مدارس بغداد الابتدائية. ولقد لفت انتباهي حينذاك بعض الشيوخ والمعلمين اصحاب العمائم الذين اشتهروا باداء التلاوات والموشحات والمواويل والاناشيد والتواشيح الدينية التي تكثر في مجالس الذكر قادتني الصدفة الى حضور هذه المجالس ورأى بعض المشايخ والقراء في صوتي ما دفعهم لان يطلبوا مني القراءة احيانا نيابة عنهم، وذات مرة تأخر احد القراء المشاهير فازاد احد المتنفذين ان يلهي الناس وطالبهم بان يستمعوا الي وفي اثناء قراءتي حضر القارئ الشهير فاستمع الي ايضا واعجبه صوتي، وانعقدت بيننا اواصر صداقة متينة حتى اخذت منه كل فنه قبل التتلمذ على محمد القبنجي.

الفنان الحقيقي هو الذي يصعد ويثابر ويتحدى كل الضغوط، والمقام كان ولا يزال فنيا رفيعا تصغي اليه نخبة من اصحاب الاذواق الرفيعة، وكانت مجالس المقام تضم شخصيات سياسية لها شان كبير.

–اين كانت قراءة المقامات؟

× كنا نؤدي المقام في اماكن الرياضة التي كانت تسمى في السابق "الزروخانات" وهي الاماكن التي تمارس فيها العاب القوى، فكان قارئ المقام يثير حماستهم ويشدهم للعب الذي تتصاعد ذروته مع تصاعد الانغام، ويتطلب ذلك من قارئ المقام نفسه ان يرتدي ملابس الرياضيين ذاتها.

وفي المقابل يردد الرياضيين الحان المطرب وكلماته.

– ومتى دخلت الاذاعة؟

× قرب نهاية الاربعينات حيث كنت اسجل للاذاعة نهارا، وفي الليالي اقرأ في الموالد ومجالس الذكر.

– هل ثمة اماكن بغدادية اخرى شهدت حفلات للغناء والمقام؟

× كانت بغداد في مطلع هذا القرن، وخصوصا في باب المعظم وساحة الميدان مليئة بالمقاهي الشعبية التي كانت ذات نكهة وطقوس جميلة.. فهي عبارة عن مسارح مصغرة تؤدي فيها شتى انواع الفنون وتجتمع على ارائكها مختلف الشخصيات كالوزارة والصعاليك، وقد التقيت ام كلثوم في احدى هذه المقاهي الشعبية حين زارت بغداد ومن هذه المقاهي تخرج الادباء والفنون ورجال السياسة وكان لكل مقهى مطربه وشاعره ومحاربوه.

– بعض النساء حاولن تأدية المقام اليس كذلك، نتذكر "صديقة الملاية" و"مائدة نزهة" على سبيل المثال؟

× المرأة لا تنجح في اداء المقام ذلك ان الطبيعة الناعمة الرقيقة لصوت المرأة لا تلائم فن المقام الذي يتطلب حنجرة قوية تنطلق منها اصوات جهيرة عنيفة وعذبة في آن معاً.... تماما كالشلال يسقط ويزمجر بقوة وسرعان ما ينساب بهدوء ورقة.. صوت المرأة ليس شلالا، بل نسمة.

– .. وام كلثوم؟

× موهبة خارقة ذات نوع غنائي خاص وطريقة مميزة في الاداء.. انها علاقة فريدة، اعتقد انها لا تظهر غير مرة واحدة ربما في عدة قرون وام كلثوم لم تجرب اداء المقام ولكنني احافظ اغانيها وقد غنيت بعضها وخصوصا القصائد.

– انت معجب جدا بام كلثوم؟

× ومعجب ايضا بمحمد عبد الوهاب وفريد الاطرش.

– والطرب العراقي؟

× انا منحاز للغناء الريفي لانه احتفظ بالنكهة العراقية اما الانماط الغنائية الحالية، فلست اميل الى سماعها.

– ما هو اصعب انواع المقامات؟

– حجاز شيطاني، وله عدة فروع، واسمه يدل عليه، فهو لا يسيطر عليه.

– هل هناك اصوات عربية تتمتع بالقدرة على اداء المقام؟

× هناك اصوات، لو جرب اصحابها المقام لنجحوا كصباح فخري مثلا، وبهذه المناسبة ادعو الى انشاء معاهد لدراسة المقام والموشحات حتى لا تنقرض.

– البعض يدعو لتدوين المقام؟

× مضت سنوات طويلة وانا اسمع عن هذه الدعوات، وكان اصحابها لا يجدون الحبر ولا الورق.

– الاشرطة تملأ الاسواق؟

× ظهر العديد من الاشرطة دون علمي، وهي تسيء الى سمعتي الفنية، فانا لم افكر في تسجيل الحفلات والجلسات الخاصة، الشريط وثيقة لذلك يجب ان يتم التسجيل بشكل علمي غير تجاري.

م. الوطن العربي عام 1986

يوسف عمر... البداية والنهاية

يوسف عمر عشق المقام منذ بواكير طفولته حتى أصبح من كبار مبدعيه

محمد العامري

مع القبانجي والغزالي وعبد الرحمن خضر

عشق يوسف عمر المقام منذ طفولته وترعرع بين اصوات كبار رواد المقام الاوائل وتشبعت مسامعه بكل انواع والوان واشكال المقامات حتى أصبح من كبار فطاحله ومبدعيه واعمدته ... وتجمع كل المصادر على ان الراحل الكبير يوسف عمر كان قد ولد في محلة جديد باشا سنة ١٩١٨ حين كانت بغداد يومئذ تمثل بيئة دينية ملتزمة مشهورة بقراءة وتراتيل القرآن الكريم والمناقب النبوية والتهاليل والمقامات العراقية، حيث تحول المقام العراقي فيما بعد الى اساس من اساسيات الغناء العراقي خاصة والعربي عامة .

ولقد ارتبط عشق المقام في قلب هذا المقامي الكبير منذ طفولته حيث كان يعيش ذات الجو والبيئة التي كان عليها والده واعمامه وسعى لسماع الاسطوانات التي كانت في في ذلك الوقت نوعا من انواع الابتكارات السحرية العجيبه، حيث كانا اغلب هذه الاسطوانات مسجلة بأصوات كبار المقامين أمثال أحمد الزيدان ورشيد القندرجي ونجم الشيخلي وحسين كردي ومحمد القبانجي وحسن خيوكة والحاج عباس كمبير وقدوري العيشة وغير هؤلاء المقامين الكثير .

ومع كل سنة من سنوات بلوغه مرحلة الشباب الاولى كان عشقه السرمدي للمقام العراقي يكبر وينمو حتى ملك عليه كل حواسه، خصوصا وأنه كان ينتهل ويغترف من قراء المقام الكبار والخبراء باسراره أمثال ابراهيم الخشالي وجهاد الديو وغالب الخشالي، واغترف يوسف عمر أخيراً من المقامي الكبير محمد القبانجي اغترافا كبيرا واستطاع ان يقلده بنجاح كبير في طرائقه المقامية التي حازت على اعجاب الجميع ، إلكنه استطاع خلال فترة وجيزة ان يكون له شخصيته المقامية المستقله عن شخصية المقامي الكبير القبانجي ليكثر معجبوه يوماً بعد يوم حتى تمكن من احتلال الصدارة في الساحة المقامية العراقية برغم وجود الكثيرين في تلك الساحة ولهذا كثر حاسدوه ومنافسوه ..

ولقد مرت على المقامي الخالد يوسف عمر اسوأ سنوات حياته حين حكم عليه بالسجن لمدة ١٥ عاما بتهمة قبل عنها اشتراكه في مقتل شخص وكانت قساوة تلكم السنوات انها ادخلته السجن وهو في ريعان ربيع العمر لكن سنوات السجن زادته قدرة على صقل موهبته فانطلقت حنجرته الذهبيه باعذب الالحان من قلبه الدامي من بين قضبان وراح يقرأ المقام ليل نهار من بين قضبان السجن ...

وعن هذه السنوات الأليمه يقول الراحل الخالد يوسف عمر في مقابلة صحفية كنت قد اجريتها معه سنة ١٩٨٣ايقول عنها ((كانت سنوات السجن اشبه بحكم الاعدام المؤجل لأنني كنت بريء ولكن الظلم كان يلاحقني حتى ادخلني السجن ولم يكن يخفف عني ألمي غير المقام الذي اعشقه واهواه مثل الزاد والهواء كما ان السجناء الذين كانو معي هم ايضا كانوا يشعرون بالالم من كل حرف كنت اغنيه من المقامات لان للمقام العراقي تأثيرا نفسيا كبيرا لا يفهمه ولا يدركه الا من عشق المقام في قلبه وعقله))

ويضيف الراحل الكبير (ابو يعكوب) ((ساعدتني سنوات السجن على تعلقي اكثر بالمقام العراقي وازداد تمسكي وحبي له اكثر من اي فترة اخرى من فترات حياتي لانه كان رفيقي وصديقي الوفي الوحيد الذي أشكو اليه همومي فيستجيب لي ويساعدني على تفريغ شحنات الغضب في داخلي على الظلم الذي اصابني))..

في سنة ١٩٤٨ اطلق سراح يوسف عمر من السجن منهياً محكوميته التي بلغت خمسة عشر عاماً، ويقول عن مرحلة ما بعد خروجه من السجن ((كان عندي صديق تربطه علاقه مع (سلمان موشي) الذي كان في ذلك الوقت خبير المقامات العراقية في اذاعة بغداد اللاسلكية التي كانت تسمى آنذاك،وهو من المقامين المعروفين . وطلب هذا الصديق من(سلمان موشي) ان يستمع لصوتي بعد ان شرح له امكانياتي في غناء المقام العراقي رغم انني كنت لا ازال هاوي في تلك الفترة ولم اصل بعد الى مرحلة الاحتراف او لمستوى المقامين الكبار في تلك الفتره))

لقد مرت على المقامي الخالد يوسف عمر اسوأ سنوات حياته حين حكم عليه بالسجن لمدة 15 عاما بتهمة قبل عنها اشتراكه في مقتل شخص وكانت قساوة تلكم السنوات انها ادخلته السجن وهو في ريعان ربيع العمر لكن سنوات السجن زادته قدرة على صقل موهبته

ويقول ابو يعكوب ((اتجهت الى اذاعة بغداد اللاسلكيه انذاك وقابلت (سلمان موشي)وسالني عن سنوات غنائي للمقام العراقي والمقامين الذين اعرفهم وقلت له انت من المقامين المشهورين فقال لي اريد ان اسمع صوتك ثم سألني اي مقام تشعر انك تستطيع ان تغنيه ؟؟؟ فقلت له سأغني من مقام (الرست).. فاندهش (سلمان موشي) وقال لي (عفت كل المقامات واجيت على الرست ؟؟ هذا ما يغنيه الا الكبار لان اصعب مقام ... فقلت له سأغني الرست وما اريد منك غير بس تسمعني) ...

وحين انتهى ابو يعكوب من غناء مقام الرست كان سلمان موشي مبهورا جدا بالأداء الراقي الذي قدمه يوسف عمر واعتمده فورا مطرباً مقاميا في الاذاعة لأحياء حفلات مقامية كل اسبوع .ويقول يوسف عمرعن تلك اللحظات((بعد ان انهيت المقام قال لي سلمان موشي وين جنت مضموم عليه ؟؟ فقلت له كنت بالسجن فقال لي راح يجيك يوم اتصير انت بيه علم من اعلام المقام العراقي ...

وصدقت نبؤة سلمان موشي فبدات شهرة يوسف عمر تنتشر في كل مكان بسرعة كبيره واطرب بصوته المتميز كل بغداد وليلياليها في حفلات مقامية مستمره .

وفي سنة ١٩٥٦ اشترك يوسف عمر في أول فيلم عراقي هو (سعيد أفندي) وعن اشتراكه في هذا الفيلم يقول الفنان الراحل (استدعاني المخرج كاميران حسني الذي كان يعرفني من خلال حفلاتي المقاميه في دار الاذاعه وسالني هل تريد ان تشترك في تمثيل فيلم سينمائي؟؟ وقلت له انا لا اعرف بالتمثيل فقال لي لن تمثل كثيرا ولكن أنت ستغني في الفيلم في(ميخانه) اي فانه مقامي اخر غيره وله فيها فضل كبير على المقام العراقي بعد ان كان فن المقام العراقي محصورا في زاوية ضيقه توشك ان تهدده بالانقراض والنهاية ...

وكما كانت حياته في صباه وشبابه مؤلمة فقد كانت مؤلمة ايضا في نهايتها حين اصيب بمرض الشلل الرعاشي الذي اضطره اخيرا الى اعتزال المقام العراقي وتقاعد عام ١٩٨٥ ...ثم وافاه الاجل في ليلة ١٤/١٥ تموز ١٩٨٦ بعد ان قدم تراثا مقاميا كبيرا وخالدا لا زالت اثاره وصداه تتردد في الاسماع والقلوب حتى يومنا هذا ..

رحم الله يوسف عمر (ابو يعكوب) فنانا كبيرا وعمودا حقيقيا من اعمدة المقام العراقي ...

يوسف عمر لم يعتزل الغناء الى النهاية ..

عبد الامير جعفر

مع احمد رامي وصالح جودة عام١٩٦٥

في تلفزيون بغداد العديد من الحفلات التي كانت تزيد من شهرته ونجوميته بين اوساط الجمهور حتى اصبحت له حصة الاسد في كل الحفلات المقامية للاذاعة وللتلفزيون ايضا مقارنة ببقية المطربين المعروفين ورغم هذه الشهره الا ان شخصية يوسف عمر ظلت تلك الشخصيه البسيطه من محلة (جديد باشا) الخاليه من التعقيد ولكنها مليئة بالمصاعب والالام المريره ... فبعد سنوات السجن تعرض الراحل يوسف عمر الى صدمة اخرى كبيره تمثلت في موت ابنة عمه التي كان يحبها ويعشقها عشقا كبيرا وتوفيت في حادث انقلاب(البلم) الذي كانت مع عائلتها تنتقل به من صوب الى صوب على ضفة النهر وماتت غرقا فأصابت تلك الحادثه قلب يوسف عمر اصابة اخرى شديده ومريره ...وهو الامر الذي زاده عشقا والتحاما بالمقام العراقي ..

وازدادت نجومية الراحل يوسف عمر في التلفزيون مع مشاركته الرئيسية في المسلسل التلفزيوني الكبير والشهير (كهوة عزاوي)في أوائل السبعينيات فغنى كل انواع المقامات المعروفة في ذلك المسلسل كما أدى شخصية المقامي الراحل(رحمة الله شلتاغ) في تمثيلية تلفزيونية خاصه مع الفنان الراحل محمد القيسي..واصبح يوسف عمر اشهر من نار على علم في المقام العراقي في تلك الفتره حتى ان المقامي الكبير الاستاذ الراحل محمد القبانجي قال عن يوسف عمر قوله المشهور((يوسف عمر ثاني من قرأ المقام من بعدي))وهذه شهادة ليوسف عمر من كبير المقامين العراقيين الراحل القبانجي..

وبين ثنايا الاجواء البغداديه التراثية والفولكلوريه في المتحف البغدادي الذي أسسه الفنان الراحل فخري الزبيدي عن طريق امانة بغداد أطرب يوسف عمر جمهوره طربا اصيلا ... ثم تحولت حفلاته الاسبوعية في (خان مرجان) الى حفلات لا تضاهيها الا قصص(الف ليلة وليلة) وحكايات شهرزاد وشهريارعذوبة وذوقا وتألقا مقاميا شدت اليه كل الاسماع واطربت له كل النفوس ...

وتفرد يوسف عمر بين كل المقامين في أنه أول من نقل المقام العراقي من بيوت الوجهاء والاثرياء والطبقة العالية في المجتمع العراقي انذاك الى المستوى الشعبي في المقاهي والأزقة والبيوتات البغدادية الشعبيه والبسيطه وهي سابقة لم يصل اليها اي فنان مقامي اخر غيره وله فيها فضل كبير على المقام العراقي بعد ان كان فن المقام العراقي محصورا في زاوية ضيقه توشك ان تهدده بالانقراض والنهاية ...

وكما كانت حياته في صباه وشبابه مؤلمة فقد كانت مؤلمة ايضا في نهايتها حين اصيب بمرض الشلل الرعاشي الذي اضطره اخيرا الى اعتزال المقام العراقي وتقاعد عام ١٩٨٥ ...ثم وافاه الاجل في ليلة ١٤/١٥ تموز ١٩٨٦ بعد ان قدم تراثا مقاميا كبيرا وخالدا لا زالت اثاره وصداه تتردد في الاسماع والقلوب حتى يومنا هذا ..

رحم الله يوسف عمر (ابو يعكوب) فنانا كبيرا وعمودا حقيقيا من اعمدة المقام العراقي ...

تردد في الاونة الاخيرة اخبار عن اعتزال الفنان يوسف عمر الغناء بعد ان اخلص لفن المقام العراقي طيلة ستة وثلاثين عاماً قدم خلالها نماذج ممتازة من الاداء لمختلف المقامات العراقية وحاول ايضا ان يقدم اساليب ادائية مبتكرة حافظت على الجوهر التراثي لهذا الفن..

"الف باء" التقت الفنان يوسف عمر في بيته فكان هذا الحوار.

يوسف عمر بدأ مقلداً لاستاذه محمد القبانجي، وبين ولادته في عام ١٩١٨ وتقديمه اولى حفلاته كمطرب للمقام عام ١٩٤٨ ثلاثون عاما تقريبا اين كنت طيلة تلك الفترة.

كنت اقدم حفلات يومية للمقام كهاو في مجالس خاصة، اتذكر انني تعلمت مبادئ المقام وطرق ادائه وانا في الصف الرابع الابتدائي، واتذكر ان اول مقام غنيته مع فرقة موسيقية – جالغي – كان مقام (الاورفة) معتمداً على طريقة استاذي القبانجي في مقام (كفي الملام)، وحتى اواخر الاربعينات كنت قد خبرت هذا الفن تماما فتبلورت قدراتي وكان طموحي هو الغناء عبر المذياع رغم اني سجلت في تلك الفترة عدداً من الاسطوانات الفونوغرافية اكتملت حتى عام ١٩٥٤ بثمانية عشرة اسطوانة.

انت بدأت من حيث ننتهي

× قبل ان لدخولك الاذاعة قصة هلا ذكرتها لنا؟

– في احدى ازقة الحيدر خانة التقيت مرة مع خبير المقام آنذاك الذي كان يشرف على فعاليات المقام في الاذاعة وطلبت منه ان اقدم وصلة من المقام عبر المذياع، فطلب مني الحضور الى مقهى (حسين علوان العيشة) في منطقة الشورجة حيث كانت منتدى الفنانين ومطربي المقام، وكان الفنان القبانجي حاضرا كما كان المرحوم الحافظ مهدي وعدد من العازفين بين الحضور.

وحين طلب الي الغناء قدمت مقام (الرست) وهو من اصعب المقامات، فدهش الحضور وقال لي خبير المقام "انت تبدأ من حيث ننتهي، لانك اخترت مقاما صعباً، وفي اختبار الاذاعة واجهت نفس الموقف مع احد عازفي القانون.

وبعد ايام كنت اقدم اولى مقاماتي في الاذاعة "الحديدي" – لنواظري حين تاه الشكوك بظهورهن – وكان استاذي القبانجي قد سبقني في غنائه.

مبادرات في التطوير

× خلال مسيرتك الفنية الا تعتقد انك انجزت بعض المبادرات التي اسهمت بتطوير فن المقام، اي ان الاداء وحده لا يكفي.. هل اكتشفت لنفسك اسلوباً خاصا في الغناء؟

– اعتقد اولا ان المقام لايحتاج الى تطوير واذا كان ثمة عيب فهو في الاداء واختيار القصيدة، وثانيا حاولت تهذيب بعض المقامات بحذف الكلمات الاعجمية منها مثلما فعل القبانجي، كما احسنت اختيار القصائد العربية واعدت تقديم مقامات كانت مهملة كمقام (سعيدي مبرقع) ومقام (التفليس) وقدمت لونا من المقامات باللغة التركية يتذكرها محبو المقام في تمثيلية الزبانية التي قدمها التلفزيون عن المطرب شلتاغ، واعتقد ايضا ان الابداع لايقف عند حدود فقد حاولت مثلا ادخال بعض القطع الغنائية على المقامات كقطعة المخالف في مقام المنصوري فكانت ناجحة تماماً.

وقدمت الوانا من المواليد والتواشيح الدينية.

هل اعتزلت المقام

× سمعت انك اعتزلت المقام هل هذا صحيح؟ وحين شاهدناك آخر مرة على شاشة التلفزيون كنت تستريح على كرسي وانت تصدح باغانيك على قاعة المسرح الوطني؟

– مازال صوتي بخير – ارجو ان تكتب هذا ومازلت اؤدي المقام بنفس المتانة التي عهدها الجمهور بصوتي وجمهوري يزداد يوماً بعد يوم خاصة في الحفلات الاسبوعية التي اقدمها في خان مرجان، وانا منزعج الان بعد ان علمت انها اصبحت شهرية.

وساقوم بتسجيل بعض المقامات للتلفزيون، كما قام المخرج حمادي محسن بتسجيل حلقة خاصة عن مسيرتي مع المقام، وحاليا اتابع الاصوات الجديدة التي اتمنى لها الانتشار والنجاح.

× بمناسبة الحديث عن الاصوات الجديدة الا تتوقع لبعضها ان تحقق نفس شهرتك؟

– اعتقد ان حسين اسماعيل الاعظمي وسعد عبد الحميد سيحققان النجاح اذا استمرا بهذا الاتجاه، وهناك مجموعة جديدة من الاصوات الممتازة يحاولون ايجاد قناة اخرى لتقديم فنهم بعد ان اهملتهم الاذاعة ومنهم صلاح السراج وحامد السعدي وشامل طبرة، فقاموا بتقديم حفلات اسبوعية في المقهى البغدادية واول حفلة اقيمت حضرتها مع الفنانين القبانجي وحقي الشبلي تشجيعاً لهم، واذا ما اصبحت هذه المبادرة تقليداً ثابتاً فسوف تستقطب اصواتاً اخرى.

× هل تشاهد برامج المقام في التلفزيون؟

– شاهدت قبل ايام برنامجاً عن المقام قدمه الفنان هاشم الرجب وقد المني ان اسمع اصواتاً متعبة تؤدي هذا اللون، بل حتى الاغنية المرافقة كانت مؤلفة عن (بغلة مفقودة) فتصور ماهي المفاهيم المتخلفة التي تطرحها هذه الاغاني؟.. وما اريد قوله ان هذه البرامج ينبغي ان يقدمها مختصون بالاعتماد على الاصوات المقتدرة في الاداء.

الف باء 1983

القبانجي والغزالي ويوسف عمر في دمشق :

ماهي أوجه التفرّد في المقام العراقي؟

زيد الحلي
صحفي عراقي

حضرت مرة ، حفلا فنيا عراقيا ، غير مسبوق في المشاركة النوعية ، حضره الأدباء والشعراء العرب : احمد رامي وصالح جودت ويوسف إدريس ومحمد مندور وعبد الرحمن الشرقاوي وزكي محمود نجيب وامين الخولي ونزار قباني وسهيل ادريس ومن العراقيين د. مصطفى جواد وحافظ جميل وعاتكة الخزرجي ونازك الملائكة ود.خالد الشواف ومصطفى جمال الدين وحارث طه الراوي وغيرهم ... وقد ظل عالقا في ذهني حتى الان وهو الحفل الذي اقامته وزارة "الارشاد" العراقية على شرف وفود الادباء العرب في مؤتمرهم الخامس الذي إقيم ببغداد في العام ١٩٦٥.

كان نجم ذلك الحفل وفارسه ، مطرب العراق الاول " محمد القبانجي " الذي غنى .. وغنى حتى أتعب أكف الاديبات والادباء العرب والعراقيين من التصفيق ، وأتعب حناجرهم لمطالباتهم المتكررة بإعادة ما قدمه من فنون المقامات العراقية والبسْتات المرافقة لها بصوته الشجيّ .. لقد حضر نجم المقام العراقي وحضرت معه أنغام هذا اللون الذي تفرد به العراق : لحنا ونغما وإسلوبا .

بعد كل هذه السنين ، تساءلت مع نفسي وأنا أستذكر تلك الحفلة : ترى ماذا سيفعل الادباء العرب ، لو حضروا حفلا مشابها يحييه الى جانب " القبانجي " تلامذته : ناظم الغزالي ويوسف عمروعبد الرحمن خضر وحمزة السعداوي ومحمد العاشق وعبد الرحمن العزاوي وعبد الجبار العباسي وغيرهم من تلاميذ القبانجي؟

او إذا حضروا مناسبة بغدادية ، وإستمعوا الى " رشيد القندرجي" و" حسن خيوكة و" احمد زيدان "وتلامذتهم... بالتأكيد ، سيكون الأمر ،مذهلا وفرحا لحد يفوق الوصف !

لكن ، الذي ذكرّته ، حدث بالفعل ولم يكن حلما صيفيا ، بل حقيقة جسدها سفير المقام العراقي " حسين الأعظمي" في قاعة المنتدى الثقافي العراقي في دمشق الذي إستضافه ، قبل أيام ، حيث غنى و طبّق ، أساليب وروحية غناء أولئك الرموز الذين ذكرّتهم .. رموز المقام العراقي ، وعرّف بطرائقهم الادائية ، بدءا من القبانجي الكبير وما قبله من الرواد وإنتهاءا بالجيل اللاحق ..لقد مزج الأعظمي في هذه الإستفاضة بين الحديث الأكاديمي المبسّط عن المقام العراقي ونشأته .. وبين أدائه الصوتي، المتميز لألوان المقام .

حضر الأمسية التي كان لي الشرف في تقديمها ، جمع وافر من الشخصيات الثقافية والإعلامية والفكرية المعروفة ، المتواجدة في الشام كالشاعر الكبير عبد الرزاق عبد الواحد والموسيقار سالم حسين والإعلامي هرون محمد وغيرهم ، مما زاد من وهج وفرح " حسين الأعظمي " .

لقد توسع في الحديث المقترن بتطبيقات بصوته الأخاذ ، للمقام العراقي باشكاله المتعددة وقد همس لي ذاكرا بان هذه الأمسية شكلت عنده وقفة بضرورة تكرارها ، كونها كانت (عراقا مصغرا).. في إشارة منه لدور المنتدى الثقافي العراقي في تهيئة الاجواء للعراقيين في دمشق وعوائلهم للقاءات في أجواء من الألفة والمحبة .

إستهل الأعظمي حديثة عن المقام العراقي وشكل الأدائية المتميزة فيه بقوله.. " كان القبانجي هو اول من بدأ وترأس حملة التجديد في طرق الأداء المقامية منذ العقود الاولى من القرن الماضي وقد شُنت عليه حملات نقدية شعواء بين معارض ومؤيد ، بحيث أحتدم الجدل في تلك الحقبة من الزمن وما تزال آثارها باقية عند المحافظين " القدماء" والاجيال الحالية .. ولم يقفل باب المناقشة لهذا السبب. بل سيستمر "

وأوضح الأعظمي ، ما يريد قوله بشأن ريادية التجديد التي قام بها القبانجي بالحديث عن القابلية الفذة التي يمتلكها القبانجي في عملية الانتقال من نغم الى نغم ومن سلم الى سلم وإدراكه العجيب بتماسك هذه العلاقات ومن ثم صياغتها بشكل انسيابي مريح ، مما ساعد على خلق حال ، لا يستطيع فيه المستمع وربما المتخصص أن يفهم تفصيلات المحتوى الموسيقي الفني لأدائه (.. وهنا قدم سفير المقام العراقي الأعظمي الوانا بصوته ليؤكد ريادية القبانجي بتجديد المقام).

وعن "ناظم الغزالي "قال انه أحدث ثورة على الأوضاع الغنائية السائدة في عصره ونزعته الابداعية التي تجسدت في إنجازاته وتهذيبه لأسلوب العرض المقامي وإنضاج العملية الأدائية وقد نجح في ذلك نجاحا فاق التصور .. ولـ " القبانجي والغزالي " دور مهم وكبير في مسيرة الأداء المقامي البغدادي والعراقي.. وقد تعرضا في نضالهما الإبداعي شأن كل المبدعين والمجددين الى (بغض) الكثير من المعارضين لروح الإبداع ، لكنهما في النهاية نجحا وحفرا اسميهما في تاريخ المقام العراقي ..(وقدم المبدع الأعظمي ، في ثنايا حديثه مقاطع من مقامات وبستات الغزالي وسط تصفيق الحضور وطلبهم المزيد !)

وبالنسبة ، ليوسف عمر فأنه كما قال الأعظمي ، كان فنانا تقليديا بصورة تامة ، وظلت سمته التقليدية هي الغالبة على كل تاريخه الفني ، فلم يزد اليها ولم ينقص منها ، فقد نقل هذا التراث بأمانة من السابقين الى اللاحقين ــ مقام مع أغنية قديمة ـ

وإستدرك الأعظمي ، بالقول ان اضافة يوسف عمر، الوحيدة التي تحسب له ، هي تعابيره الأدائية التي عبّر فيها عن عواطف ومشاعر الناس المعاصرين لحقبته الزمنية ووصوله الى التعميم الذوقي والجمالي لكل فئات المجتمع العراقي الطبقية والذوقية ، وبهذه الذوقية المهمة بات يوسف عمر فنانا مقاميا جماهيريا بصورة مثيرة ، وبها إستقام ... واشتهر!

المرأة والمقام

وعرج ، الأعظمي الى الحديث عن ولوج " المرأة" عالم المقام ، فقال ان المقام هو فن رجولي وان عليّة المجتمع هي في مقدمة من يعشقه ، ودلل على فكرته بالاشارة والتساؤل : هل شاهدتم راقصة ترافق مطربا للمقام العراقي ؟ لذلك كانت المرأة تهاب هذا الفن ولا تقربه لكن ما ان حل القرن الماضي (القرن العشرين) وهو الذي مثل حقبة التحول نحو الانفتاح في كل مجالات الحياة ، حتى ولجت المرأة باب فن المقام وإن كان بأستحياء وتردد ... ومن ابرز اللواتي دخل هذا الميدان في السابق والوقت الحالي : صديقة الملاية وسليمة مراد وسلطانة يوسف وزهور حسين ومائدة نزهت وفريدة محمد علي وسحرطه.

مع القبانجي

كان نجم ذلك الحفل وفارسه ، مطرب العراق الاول « محمد القبانجي « الذي غنى .. وغنى حتى أتعب أكف الاديبات والادباء العرب والعراقيين من التصفيق ، وأتعب حناجرهم لمطالباتهم المتكررة بإعادة ما قدمه من فنون المقامات العراقية والبستات المرافقة لها بصوته الشجيّ ..

يوسف عمر .. والسينما

يوسف العاني

الاغنية في السينما العربية ومنذ بداياتها في مصر، وحتى اليوم تحتشر حشرا، كما تحشر في افلامها مشاهد الرقص.. وهذه سمة يعيبها علينا السينمائيون في الغرب والشرق، واذا ما استثنينا العدد القليل مما انتج لسنوات خلت فان الرقص والغناء ظلا وسيلة سهلة واحيانا – وأسف لهذا الوصف – رخيصة في جذب الجمهور الساذج الذي تأسره احدث الاغاني المائعة وحركات الاجساد.

هذا العيب كان يرهقنا لسنوات طويلة ونحن في ريعان شبابنا الفني، نتطلع الى الجديد المنقح من تشويهات الصنعة التجارية في السينما المصرية.

وحينما بدأنا جديا بالتحضير لاخراج (سعيد افندي) عام ١٩٥٧ كان الطموح اكبر من الامكانات المتوفرة لدينا، وما في الذهن لايتسع مداه إلا الى الحدود التي تقف سدا منيعا، كأنه الطوق الخانق ومع كل الظروف الصعبة استطعنا تحويل الامنيات الكبيرة الى حالات ممكنة التحقيق، ان نضع سلبيات السينما المصرية في مصفاة كبيرة. فلا نبقي منها إلا ما يتلاءم وضرورات العمل السينمائي الذي نرد، وما لا يمكن تجاوزه انسياقا مع واقع ظل معششا زمنا طويلا في اذهان الناس.

لم نفكر اطلاقا ان يكون في الفيلم رقص وغناء وهزل مسف كما هو شائع، بل كان العكس تماما كان هناك مشهد غنائي راقص اردنا بواسطته السخرية من الغناء السوقي بالذات، الاغاني التي كانت شائعة في الملاهي والكباريهات والتي كان بعضها يمسح الغناء الذي له مكانة فنية عالية في الساحة الفنية.

مع هذا المشهد كان هناك مشهد آخر، اردنا ان تكون الاغنية فيه وسيلة تعبير عن الحالة الدرامية لمضمون المشهد بالذات، ونغماً يحمل بلحنه وكلماته اصالة الاحساس العراقي وصدق تعبيره.. كل ذلك دون ان تكون الاغنية مفتعله او محشورة، وان يكون اداؤها بمستوى عال كي يتناسب التعبير والتأثير معاً.

في تلك الايام كانت علاقتنا وصداقتنا مع الفنان المرحوم يوسف عمر في بداياتها، وكنا كالاخرين تسميه (ابو يعكوب) وكان صديقنا والمشارك معنا باكثر من مسؤولية في الفيلم (صالح سلمان) اقرب منا اليه، بل كانا يسكنان في دار واحدة.. فكان هو الوسيط في طرح فكرة تعاونه معنا، لان يوسف عمر لم يكن من الفنانين السهلين في التعاون لمجرد الظهور في فيلم او اي عمل فني آخر كان صالح الوسيط في اقناعه او لا وفي ايجاد صيغة الاغنية المناسبة ثانيا.. وفي ان نتعاون جميعا على ذلك وعلى اختيار كلمات تلك الاغنية.

يوسف رحب بالفكرة بعد تردد لم يدم طويلا لكنه ظل ولفترة غير قصيرة يفكر في الاغنية التي يجب ان تؤدي في مكان المشهد، وهو بار شعبي في الميدان، بين جمع من السكارى والاغنية كما اردناها، تعبير عن حالة (سعيد افندي) وهو يحمل معاناة اصابة ولده عزيز اصابة تراءت له قاتلة ولن ينجو من الخطر. حضر – ابو يعكوب- في يوم التصوير الى المكان الذي تصور فيه المشهد داخليا، اذ لم يكن في المكان الذي يظهر فيه سعيد افندي ماشيا ثم داخلا اليه، وانما كان المشهد الخارجي بمكان، في الميدان – كما قلت – لانه قريب من المستشفى (مستشفى المجيدية) كما كانت تسمى والمشهد الداخلي في بار قرب سينما شهرزاد سابقا بالباب الشرقي سألته هل اخترت الاغنية.

اجاب: الحقيقة لا!

وطلب منا ان يشاهد ما يجري من (بروفات) يستوحي منها الاغنية التي قد تأتيه طواعية، فوصف المشهد وحده لم يكن كافيا لاستحضارها.

ثم تساءل: اهناك اخرون غيركم سيشاركون في المشهد؟ قلت له: نعم هناك (دعبول البلام) وسوف يكون جالسا بجانبك خلال التصوير.

تساءل: من؟

قلت: دعبول البلام.

انشرحت اساريره وردد بفرح (ابو شاهين) وكانوا يسمون (دعبول) بهذا الاسم واختيار ممتاز هذا شخصية طريفة وظريفة وتحفة، وسوف نقضي وقتا ممتعا بقراءة البوذيات سوية قبل التمثيل ونختار الاغنية".

وانشغلنا بالتحضير وجاء ابو شاهين ليجلس قرب (ابو يعكوب) بعد ان اتحفنا بتعليقاته الطريفة عن الفيلم والذي كان يسميه (شريط) وعلاقة السينما بـ (البلامة) الى آخر الحوارات الطويلة التي عرف بها دعبول.

جلسا يتبادلان الاحاديث والمداعبات والنكات، ثم تناول يوسف قلما وورقة وراح يكتب اشعارا و "ابوذيات" يقرأها دعبول له فقد كان دعبول من الذين يحفظون الملا عبود الكرخي، كان – كما يسمونه – خزينا للكثير من الطرائف والحكايات والاشعار المضحكة والمبكية.

وكان يوسف يقرأ له ايضا مقاطع غنائية بصوت خافت فلا نجد (دعبول) إلا وقد ضرب على رأسه اعجابا وراح يصفق ويؤشر بيده طربا واستحسانا..!

بعد فترة قصيرة قال لنا يوسف إن الاغنية جاهزة وانها ليست مناسبة للمشهد بل ان اسم ابن سعيد افندي عزيز – قد صار من ضمن كلماتها .. اسما وصفة.. وراح يدندن ودعبول معه يشاركه الاداء بهدوء وشغف.

حين جاء موعد التصوير صدح صوت يوسف عمر بالاغنية التي اصبحت جزءاً مميزا ومتميزاً في الفيلم (عزيز وخلفت بالكلب حسرة..!) وعمقت في ذات الوقت تأثير المشهد وحفظها كل الذين شاهدوا الفيلم وراحت تغني في اكثر المناسبات.

وظل يوسف عمر يعتز بمشاركته في فيلم (سعيد افندي) ومازلنا نحن الذين صنعنا الفيلم نحس باعتزاز اكبر بمشاركته معنا فنانا جاداً وكبيرا ومبدعا!!.

عن كتابه (شخصيات وذكريات)

تناولت العديد من البحوث طريقة تعليم الموسيقى الكلاسيكية "الموسيقى الكلاسيكية" اصطلاح يستعمل للفن الموسيقي الذي يمارس ويزدهر في المراكز الحضارية – المدينة." ومنها – المقام العراقي – في العراق وفي الدول التي تشترك مع العراق في امتلاك مثل هذه الثروة الغنية، ويجري تاكيد هذه الابحاث على اهمية طريقة التعليم الشفوي اي مقابلة الاستاذ للطالب.

المقام العراقي وأجيال مؤديه

عامال ابراهيم محمد

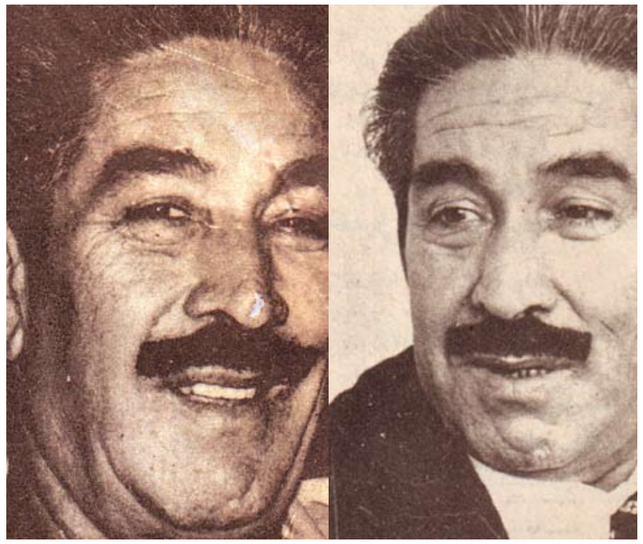

ان تركيز هذه الابحاث على اسلوب التعليم الشفوي واهميته والدعوة لاتباعه، جاء من خلال دراسة واقعية لصفات وخصائص هذا الفن – المقام كمؤلفة غنائية من جهة، وما وصلت اليه نتائج تجريب استخدام طرق بديلة من جهة اخرى، خاصة عندما فشلت الاخيرة في امكانية تعليم الموسيقى التقليدية (غنائية والية) للجيل الجديد.

ان كل الممارسات التي رافقت عملية تعليم المقام، واخص منها طريقة التعليم الشفوي، اي موافقة الاستاذ لسنوات عديدة دون ملل او كلال، اعطت نتائج مثمرة في الحفاظ على الثقافة الموسيقية والغنائية بشكل خاص.

ان بغداد لم تنفرد بهذه الميزة في تعليم المقام، وانما نجد شعوبا اخرى، تقترب وتتشابه موسيقاها التقليدية مع الموسيقى العربية والاسلامية.

لقد تعرضت الفنون التقليدية لهذه الشعوب، كما تعرضت بغداد، لموجة اللجوء الى الغرب، ومحاولة تطبيق طريقة التعليم الغربي على الموسيقى الشرقية، التي تختلف بصورة جذرية عن مسار تطور الموسيقى الغربية.

لذا نجد ان تجارب الشعوب التي استخدمت الطريقة الاوروبية، فشلت بدرجة كبيرة في الحفاظ على موسيقاها المحلية، ليس بسبب قصور الطريقة الاوروبية، وانما بسبب عدم امكانية استيعاب وضم الاسلوب الغربي لتفاصيل وتشعب الموسيقى الشرقية عموما، والعربية الاسلامية خصوصاً.

ان الاسلوب الاوروبي وضع وتطور لصالح الموسيقى الاوروبية وسلمها المعدل، ومن الافضل للموسيقى العربي والشرقي، اما ان يبقى على الطريقة التي حافظ بها اجداده على تراثهم، او ان يقوم بوضع، وخلق وتطوير ادواته ورموزه، لتناسب تفاصيل موسيقاه والتعبير عنها بصورة دقيقة، مثلما فعلت الرموز التي اوجدها الغرب بتطوير موسيقاهم، بدل ان يعيد التجارب التي خاضتها الشعوب المجاورة، والتي جعلتها تعيد حساباتها في العودة الى الطريقة القديمة في التعليم.

وقد اشار الاستاذ محمد القبانجي الى هذه الحقيقة في احدى مقالاته، موضحاً عدم صلاحية استعمال النوطة الغربية بوصفها تطوق وتحدد المقام العراقي ذاكرا مثالا فنيا دقيقا.

" ام مقام (الجمال) لم يكن مقاما بذاته، وانما كان (وصلة) تقع في نهاية مقام (السيكاه) قبل التسليم بحركة واحدة، فلو فرضت علينا (نوتة) سابقة بتحديد مقام (السيكاه) لما تمكنا من الخروج على (النوتة) باحداث مقام من تلك (الوصلة) المنغمرة.

وحول الموضوع نفسه يؤكد زكريا يوسف في احدى مقالاته حول عدم صلاحية النوتة لتدوين المقام. "إذ ان النوتة الغربية لا تصلح لتدوينها".

وفي المعنى نفسه يوشح الحاج هاشم الرجب – الخبير للمقام – بان مقام الرست يقرأ اليوم بطريقة تختلف عن الطريقة التي كان يقرأ بها قبل خمسين سنة او اكثر من الان، ولو كان يقرأ على اساس النوطة، لما استطاع احد تغيير قراءة هذا المقام.

ان هذه الافكار تطرح الان في الابحاث الجديدة التي بدأت تدعو الى ضرورة العودة الى الطريقة القديمة للحفاظ على التراث من الضياع.

لقد اشتهر العراق بكثرة انغامه، وتنوعها، وغرابتها بالنسبة للفن الموسيقي العربي، كما عرف عن فناني العراق شدة حرصهم ومحافظتهم على التقاليد الموسيقية المتوارثة – المقام العراقي بشكل خاص – كما ذهب الى ذلك سيمون جارجي: "وهذا هو الامر في القطر العراقي الذي يحافظ الان على بعض المقامات التي يجهلها المصريون."

ان رفض المغنانين العراقيين فكرة اعتماد الاسلوب الغربي نابع من فهم واضح لطبيعة موسيقاهم من جهة ولخطورة هذا النهج من جهة اخرى، بل ان بعض الاقطار العربية، والعراق بصفة خاصة كان له شرف مقاومة هذا الاتجاه، وقد وصف العراقيون هذا الميل الى الغرب بانه نخل عن التراث، ارث الاجداد في المقام القديم، ذي المكانة العالية، ورفضوا التخلي عن المقام رفضا تاما".

ان المتتبع للتقاليد الموسيقية يجد بوضوح، ان بغداد وفنانيها استطاعوا ان يحافظوا على اصول المقام العراقي، رغم صعوبته، وتشعب انغامه، وكثرة قطعه واوصاله، واستطاعوا ان يوصلوا هذا التراث قدر الامكان، دون ان يشوه بسبب وعيهم وحبهم وتمسكهم بهذا الفن.

ان تشدد العراقيين وحرصهم على المقام العراقي في الداخل والخارج ادى الى ان يجني الفنان العراقي، مقابل ذلك ثروة هائلة (الية وغنائية) تغرد وتميز بها في جميع المحافل العربية والدولية، منذ مؤتمر القاهرة عام ١٩٢٢، حتى الوقت الحاضر، اذ نجد نظرة الاكبار والاعجاب تصاحب ما يقدمه العراقيون بمختلف فنونهم الموسيقية (المقام العراقي او الغناء الريفي او الغناء البدوي) عندما يقدم بصورته المحلية النقية.

واذا كان المقام العراقي "لون غنائي تصاحبه الالات الموسيقية". فانه علم متكامل لان المتعلم، يجب ان يتبع القواعد والاصول الموضوعة الخاصة بهذا الفن، فمن المعروف ان الموسيقى في العراق – عازفا كان او مغنيا – لا يستطيع ان يقدم المقام العراقي، الا بعد دراسة القواعد والاصول الخاصة باداء المقام.

وقد اشارت المصادر التي تناولت المقام العراقي الى دور التلقين الشفوي في اتقان هذا النوع من الغناء، ويتوضح ذلك في اشارة (عبد الكريم العلاف) في معرض حديثه عن الفنان العراقي رشيد القندرجي: "ومن ذلك الوقت تولع بفن الغناء وصار يجالس كبار المغنين العراقيين، ويسمع منهم المقامات، ومن حسن حظه انه ادرك استاذه المرحوم احمد الزيدان ولازمه حتى مماته، وقد اخذ عنه الغناء، فلم تفته حركة من حركاته، ونبرة من نبراته، الا واتقنها واحاط بها علما." واثمرت طريقة التعليم الشفوي خلال هذا القرن بتخرج عدة اجيال او طبقات من قراء المقام في بغداد، وقد كان اول من اشار اليهم الشيخ جلال الحنفي في كتابه (المغنون البغداديون والمقام العراقي) المطبوع سنة ١٩٦٤ وكان يمثل كل جيل عند قليل من القراء الكبار وهم:

الجيل الاول يمثله كل من: ابو حميد ، امين ابن الحمامجية، حسن البابوججي، شلتاغ.

الجيل الثاني يمثله كل من: احمد الزيدان، خليل الرياز، روبين بن رجوان، صالح ابو دميري.

الجيل الثالث يمثله كل من: رشيد القندرجي، سلمان موشي، عباس الشيخلي، قدو الاندلي، محمد القبانجي، يوسف حوريش.

الجيل الرابع يمثله كل من : احمد موسى واخيه علوان ابو الكبة، عبد القادر حسون، الحاج هاشم الرجب، يوسف عمر.

وان دور الطالب المتعلم بهذه الطريقة، لايقل اهمية عن دور الاستاذ في الرغبة الشديدة في الحفظ والتعلم وملازمة الاستاذ.

ويوضح هذا المعنى الشيخ جلال الحنفي: "ولكن مرور الزمن وكثرة الاصغاء الى المقام، وهو يقرأ في كل مناسبة، وفي كل مكان، وشدة الحرص على تلقيه، وقوة الرغبة فيه الى حد الدنف، يجعل امر حفظه وممارسته امراً ميسوراً على من يكلف به ويتعشقه.."

ولا يقل دور الاستاذ في اتباع الشروط والمواصفات التي تتوفر في الطالب المتعلم، لان استاذ المقام لا يعطي او يلقن هذا الفن لكل طالب، ما لم يجد لديه القدرة والموهبة، يشير الى ذلك الحنفي، "ولم يكن من طبع المغنين البغداديين ان يتساهلوا في تلقين احد شيئا من المقام، لان المسالة شاقة، والمقامات كثيرة، وكل مقام يتقوم من نغمات شتى، ولكل مقام هيكل نغمي ينبغي التزامه، وهذا كله يجعله المعلم، ويتعب الطالب المتعلم.".

ويمتاز التعليم الشفوي بكونه يخص فنا محدداً، ولا ينطبق على باقي الفنون او العلوم، ويعطي نتائج عالية الجودة، ويحافظ على تراث وشخصية هذا النوع من الفن.

كما ان الفنان الذي يتعلم بهذه الطريقة، تجده فناناً واثقاً من نفسه فخورا، متماسكا، حريصا، بسبب صعوبة الطريق الذي سلكه من جهة ، وتفرده من جهة اخرى.

ويقول الفنان محمد القبانجي محدداً شروط قبول الطالب الذي يريد ان يتعلم المقام بان: "الشرط الوحيد لقبول الطالب في هذا الفن، ان يكون له استعداد روحي، اذ الصوت وحده لايكفي لان يكون مغنيا مقبولا.. ان التدريب يحتم عليه الحفظ والاجادة، وهو دافع الروح والحواس.."

م. آفاق عربية
تشرين الاول 1999

يوسف عمر

يوسف عمر عشق المقام منذ بواكير طفولته حتى أصبح من كبار مبدعيه

ستار جاسم ابراهيم

مع فرقة الجالغي التلفزيونية في الثمانينات

ولد المطرب المقامي يوسف عمر في محلة جديد باشا سنة ١٩١٨ في بيئة بغدادية دينية تتعشق قراءة وتراتيل القرآن والمناقب النبوية والتهاليل والمقامات العراقية، والتي تدخل في كل الغناء (العراقي والعربي).

استقر حب المقام في سويداء قلب هذا الفنان منذ بواكير طفولته وهو يرى ويتلمس حب والده واعمامه واهتمامهم بالحصول على الاسطوانات التي كانت في وقتهم اختراع العصر، وبأصوات كبار المقامين أمثال أحمد الزيدان ورشيد القندرجي ونجم الشيخلي وحسين كردي ومحمد القبانجي وحسن خيوكة والحاج عباس كمبير وقدوري العيشة وآخرين.

وعندما شب يوسف عن الطوق، وزاد اهتمامه بهذا الفن الذي ملك عليه كل حواسه، وأخذ يتقرب من قراء المقام ومن هواته والمهتمين بشؤونه أو العارفين بطرقه واسراره أمثال ابراهيم الخشالي وجهاد الديو وغالب الخشالي، وأخيراً يستقر عند عتبة المقامي محمد القبانجي ومن معينه راح عمر ينهل ويغترف، ويمضي في تقليد طرائقه المقامية التي حازت على اعجاب العراقيين، إلا أنه لم يظل أسيراً لهذه الطرائق، وسرعان مايخرج من العباءة القبانجية ليستقل بشخصيته، وليكثر معجبوه يوماً بعد يوم حتى تمكن ان ينفرد في الساحة المقامية العراقية برغم وجود الكثيرين في تلك الساحة ولهذا كثر حاسدوه ومنافسوه، وكلما كثروا تكاثر المعجبون بفنه اكثر واكثر!!.

في سنة ١٩٤٨ يطلق سراح يوسف عمر من السجن منهياً محكوميته التي بلغت خمسة عشر عاماً، كان خلالها يجأر بالشكوى المرة من انه حكم مظلوماً وياما في السجن مظاليم! وقيل وقتها انه كان قد اشترك بقتل أحد الاشخاص. وفي السجن انطلق من عنق الزجاجة، وراح يقرأ المقام ليل نهار بين أنس وطرب السجناء معه فهم في البلوى سواء وفي المحن تتسامى النفوس وتتعاطف اكثر، والمقام خير معبر عما يخامر النفوس من آمال وآلام وطموحات، ويتعرف يوسف الى من يوصله لخبير المقامات العراقية في اذاعة بغداد اللاسلكية التي كانت تسمى آنذاك، المقامي المعروف سلمان موشي.

وينبهر الخبير بأداء هذا الهاوي المبتدئ والذي يبتدئ بقراءة مقام من الوزن الثقيل مثل الرست الذي يعتبر سمفونية المقامات العراقية، لهذا إعتمد الخبير سلمان، اعتمد يوسف عمر مطرباً مقاميا في الاذاعة حيث تخصص له حفلات مقامية اسبوعية حاله حال أي مطرب معتمد آخر.

وتبدأ شهرته في الذيوع والانتشار، وتأنس به الاذن العراقية والتي صيغ المقام لها.

وفي سنة ١٩٥٦ يشترك يوسف عمر في فيلم عراقي صميمي هو سعيد أفندي من بطولة الراحلة الكبيرة زينب ويوسف العاني والراحل الكبير جعفر السعدي.

ومعلوم ان يوسف غير للتمثيل لكنه يجيد القراءة المقامية فحسب، كان دوره يصوره في حانة من حانات الباب الشرقي في خمسينيات القرن الماضي، مع (دعبول) البلام غنى شيئاً من مقام الصبا:

ناموا وعين الصب ليس تنام
لله ماصنعت بي الأيام
أرعى النجوم ولي فؤاد خافق
مزجت بنغمة وجده الأنغام

وفي السنة نفسها يفتتح تلفزيون بغداد لأول مرة في الشرق الأوسط من قبل شركة (PYE) البريطانية، ويعتمد يوسف هنا ايضاً كمطرب مقامي تلفزيوني، ويأخذ حصته من الحفلات المقامية وتمتد مساحته الغنائية تدريجياً لتتقلص بالمقابل مساحة غيره من المقامين لكثرة طلبات المستمعين والمشاهدين مما خلق له جمهرة من المتذمرين وللمسألة وجهان كما نرى وترون.

وفي أوائل السبعينيات يؤدي يوسف شخصية المقامي المقدم القديم (رحمة الله شلتاغ) قرائياً بالطبع، مع الفنان الراحل محمد القيسي بتمثيله سهرة مع نخبة من ممثلينا..

وفي الفترة نفسها تفتتح أمانة العاصمة المتحف البغدادي وبجهود مكثفة من قبل الفنان الراحل فخري الزبيدي الذي كان يشغل وظيفة رئيس الملاحظين في الأمانة وهو المأخوذ بصورة الحياة البغدادية التي نقلها الى المتحف هذا ومنها قراءة المقام في المقاهي وكانت ليوسف حصته المعلومة قرائياً في المتحف، فضلاً عما كان يقدمه من روائع قرائية في خان مرجان وبعض بيوتات الوجهاء في بغداد والمحافظات حتى تقاعده سنة ١٩٨٥ وفي ليلة ١٤/١٥ تموز ١٩٨٦ تدهورت صحته، وتوفي في الليلة نفسها.

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير
عدنان حسين

مدير التحرير: علي حسين

الاخراج الفني: نصير سليم

طبعت بمطابع مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون

WWW. almadasupplements.com

المبدع يوسف عمر

سمير الخالدي
خبير المقام العراقي

من الناس من يهبه الله سبحانه و تعالى سجية الاحسان ومزية الاتقان فينحصر اتقانه واحسانه في صناعته او الفن الذي يهواه ويختاره لنفسه ويتحول بكليته إليه ويطير به الى أوج الكمال فيصبح بفضله فناناً مبدعاً يرضي الناس جميعاً وتحل عبقريته في قلوبهم المحل الاعلى فتنطوي على محبته وتجتمع على تفضيله في حياته وبعد مماته... ذلك هو المرحوم يوسف عمر بن داود البياتي المولود في بغداد عام ١٩١٧م في محلة جديد حسن باشا منطقة الحيدر خانه.عشق المقام منذ ان عرف معنى الحياة وانصرف اليه بكل جارحة من جوارحه.ولولا هذا العشق وذلك الانصراف لما كان مغنياً بارعاً وفناناً مجيداً يشار له بالبنان .

اخذ المقام عن اساتذه الاول المرحوم محمد القبانجي وتأثر به تأثراً كبيراً وكان متابعاً له سواء عن طريق سماعه الاسطوانات او حضور الحفلات العامة والخاصة والاذاعة وكذلك المناقب النبوية الشريفة التي كان يحييها الاستاذ القبانجي.كما انه استمع الى كبار قراء المقام العراقي انذاك امثال رشيد القندرجي والحاج عباس الشيخلي ونجم الشيخلي وعبد القادر حسون وغيرهم الا انه بقي متأثراً بالاستاذ القبانجي كما اسلفنا ومقلداً له في البداية. وباستمرار أدائه واستماعه لشتى مدارس المقام وأساليبها استطاع ان يكون له شخصية فنية خاصة به في الاداء واصبح له اسلوبه الخاص المميز حتى تمكن من الاحتراف بهذا اللون من الغناء.وكان اول دخوله الى الاذاعة العراقية عام ١٩٥٠م حيث قراء مقام الرست بعد نجاحه في الاختبار من قبل اللجنة الخاصة بالاذاعة.وواصل احياء الحفلات الاسبوعية من اذاعة بغداد.وسجل العديد من المقامات الرئيسية والفرعية وكذلك سجل اكثر من عشرة اسطوانات.وسجل لتلفزيون العراق عدد كبير من المقامات العراقية.عشق الغناء الريفي منذ بدايته وتأثر بالمرحوم عبد الامير الطويرجاوي وتأثر بالمرحوم نوري النجار وتعلم منه الابوذية البغدادية التي كانت تسمى (النجارية) اما مشاركاته بالمحافل الدينية فقد كان متأثراً بالمرحوم الحافظ مهدي حيث تعلم منه اشغال المواليد والاذكار كما شارك بعض قراء المناقب النبوية امثال عبد الفتاح معروف رحمه الله والحافظ عبد الستار الطيار والسيد عبد المنعم السيد علي والمرحوم الحافظ صلاح الدين والحافظ بدر الدين الاعظمي رحمه الله.

كما تأثر بالاصوات العربية مثل السيدة ام كلثوم وكان اكثر الادوار التي غنتها ام كلثوم . وقد شارك المرحوم يوسف عمر في دور قارئ المقام العراقي (سعيد افندي)وغنى فيه شعر وابوذيه من نغم الصبا مع دعبول البلام اضافة الى مشاركته في كافة حلقات البرنامج التلفزيوني التمثيلي والغنائي (كهوة عزاوي)في بداية السبعينات غنى في البرنامج العديد من المقامات . وكذلك مثل دور قارئ المقام القديم (شلتاغ) رحمه الله شلتاغ وقراء بالتمثيلية مقام الفوريات والتفليس باللغة التركية.

اما نشاطاته خارج القطر فقد سافر الى العديد من الدول العربية والاوربية مثل مصر، سوريا،الامارات، لبنان ، تركيا ، روسيا وايران وفلندا وديترويت حتى التقى بالجاليات العراقية والعربية ونال اعجاب واستحسان كل من حضر حفلاته.في بداية دخوله الاذاعة شارك العديد من الموسيقيين في حفلاته الاذاعية امثال جميل بشير .خضير الشبلي. منير بشير . خضر اليأس.حسين عبدالله وبعدها تمكن من تأليف فرقة موسيقية خاصة له مكونه من المرحوم شعوبي ابراهيم.ومحمد زكي وعدنان الاعظمي وجمال زكي. قلده الكثير من قراء المقام انذاك من الشباب وتأثروا به فظهر منهم الكثير وهم امتداد لمدرسة القبانجي امثال حمزة السعداوي وعبد الجبار العباسي وعبد القادر النجار وعبد الرحيم شهاب الاعظمي وحامد السعدي وغيرهم.

معرفتي بالفنان المرحوم يوسف عمر في أواخر السبعينات عندما دعيناه لاحياء المنقبة النبوية الشريفة في الاعظمية مع الحافظ بدر الدين الاعظمي ومنذ ذلك الحين توطدت العلاقة وكان يزروني في محلي (انغام التراث) كثيراً حتى اصبحت يومية وعندما أعياه المرض خدمته خدمة الاخ لاخيه والله يشهد بذلك حتى وافاه الاجل ليلة ١٤/ ١٥/ تموز ١٩٨٦م وفي هدوء رهيب ودع الفنان المبدع يوسف عمر الحياة . رحمه الله حيث سيبقى في ذاكرة كل الاجيال.

عراقيون
من زمن التوهج